الفصل السابع:
يوم السقوط

في احدى الليالي كان الجد علي بن حمد جالساً عند الحائط الغربي، يذكر ربه في انتظار العشاء الآخرة، يتأمل الهلال الوليد ويسجل بعض الأحداث، على ضوء سراج زيتي ذو فتيل عريض، من صنف جيد لا يُحدث دخان. عندما جاءه أحد الأقارب قائلا إنه يبدو "مشتاق لعياله" أو أنه غدا مثل الأجراء يعد الليالي ليقبض المشاهرة! فأجابه أنه يفكر في حالهم وقد تركوا الديار والأهل منذ نهاية العام الماضي، ويسأل الله أن يعجل بنهاية الأمر على خير، فرد عليه أن بعض الأمراء لديهم "حترشة" غير مفهومة. لم يود الخوض معه في جدال بلا طائل، فقد كان ذهنه مشغولاً بتأخر عودة عماله من الحريق، حيث افترض أن ذهابهم يستغرق نحو ثلاثة إلى خمسة أيام، وعودتهم مثل ذلك وبقائهم هناك يومين، وقد مضى عليهم الآن جمعتين (أسبوعين)، وتوجس من مخاطر الطريق رغم أن اليمامة ساكنة، لكن الأعراب يعيثون فساداً في ظل هذه الحرب، وعاد بعضهم ليشطر الطرق أو يتقاضى إتاوات وباجة. تحادث مع أحد فضلاء الأسرة فقال له أنه مطلوب للمشاركة في سطوة كبرى (هجوم ليلي) ليست مثل السلماني بل أكبر، قد يكون فيها حسم تلك الغزوة، ويشارك فيها أمراء وبعض رؤساء العشائر والفقهاء وخيرة المقاتلين، وقد وقع عليك الخيار لتكون معهم، لما لديك من اخلاص ودقة رماية وحدة بصر في الظلام، فأجابه فوراً بالموافقة على ذلك. ظهر اليوم التالي توجهوا مع بعض المجاهدين خارج السور، ثم انحرفوا يسارا نحو وادي متسع يقال له صفار، وهناك شاهدوا بناء ضخم من الخوص وسعف النخيل، لم يرى مثله من قبل في نجد أو الحجاز ومسقط، كان بابه الشرقي عريض يتكون من لفات من الحصير، وأما جهته الشمالية فطولها يقارب خمسين ذراع، وعنده عمال يسكبون الماء فوقه، والسقف مقبب وهو من السعف أيضا، قالوا له أنه "خُص" وهو بناء شائع في نواحي البصرة حيث تكثر النخيل، ويتقن تشييده طائفة يسمونهم "النخاولة" وهم بسطاء يقضون حياتهم في مزارع النخيل، وفي المربعانية يشذبون السعف الجاف حتى لا تسكنه العناكب الضارة بالثمار، ثم يستخدمون الكبار منه لعمل مظلات صغيرة، أو مجالس ضخمة مثل ذاك أو أكبر، وعندما يرش الماء على جهته المقابلة للرياح يبرد الهواء في داخله صيفاً. ذهب قوم من الدرعية لتعلم ذلك، لكن عدم وجود البوص جعل البديل عمل ربطات من عسيب النخل، تكون ساند لجدران الخص. عند دخوله هاله اتساع المجلس وارتفاع السقف، حيث يبلغ نحو ثلاث قامات في الوسط، كما أن رش الماء على الجزء الشمالي أدخل نسمات باردة، تلطف حرارة الهواء وتقلل دخول الهوام، كما لاحظ أن المكان منحرف تجاه القبلة، وتوجد كوة صغيرة (خوخة) في الجزء الغربي، يدخل منها البعض نحو صدر المجلس، ومعدة كمحراب ليقف فيها

من يؤم الناس للصلاة، والمكان يتسع لعشرة صفوف أو أكثر عند الزحام. جاء بعد قليل الأمير تركي بن عبدالله (ابن عم والد الإمام آنذاك) ومعه امراء من ذرية الإمام سعود (أبو الشوارب) وإخوته، وبعد التحية تحدث تركي عن عملية يزمعون القيام بها وتتطلب التكتم التام عليها، كما أنها صعبة وخطيرة لذا يلزمها اعداد جيد وتدريب مسبق، وحذر من لا يجد في نفسه القدرة التامة على المشاركة أن ينسحب مبكراً، وقدم أمير آخر بيان مبهم عن العملية، التي مازالت تحت التخطيط ولم تتضح لهم معالمها بعد، ثم جرى تقسيم الحضور إلى مجموعات، كان موقع الجد علي مع نحو خمسة عشر رجلا في فرقة يقودها رجل من أصهار آل مقرن، اتفقوا على اللقاء في مكانه بعد ثلاثة أيام، ثم غادر الجد وأقاربه المكان معتذرين عن تناول الطعام معهم. عند عودته لمنزله سره مشاهدة عماله عائدون من الحريق، والركائب محملة بالطعام والأمتعة ويستاقون أغنام، ولدهشته لا حظ قدوم ولده عمر معهم، فعاتبه للحضور في محيط خطر الطريق وميدان الحرب، وأمره بسرعة العودة وأذن له بإلقاء نظرة على جوانب الوادي، حتى يطمئن القرابة على حاله. ثم وزع بعض الطعام على من طلب، وأمر العمال بحفظ البقية للحاجة ليكفيهم حتى بعد رمضان، لكنه لما رأى البعض يبيعونه في سوق البجيري، خشى عليه من الخطف فأمرهم ببيع جزء منه، فالنقود أسهل في العد والحفظ.

بعد أيام وصله رجل بدعوة لمقابلة الأمراء، فتوجه وخمسة من صحبه ليخبروهم بوجوب مغادرة كتلة لبدء التدريب، حيث قسموهم إلى ست فرق في كل منها نحو ثلاثين رجل، وفي اليوم التالي جاءهم أحد رجاجيل آل سعود (بني أبو الشوارب) واتجهوا صوب الجنوب الشرقي، على مقدار ساعتين من الدرعية نحو بناء بسيط يبعد قليلا عن الدرب الواصل بينها والرياض، كان المبنى متواري عن أنظار السابلة، ويشبه مساكن الغجر المقامة بين تلك التلال القاحلة، التي صعد الجد أحدها وتطلع نحو نخيل غذوانة من جهة وروضة المعذر من جهة أخرى. في الداخل يوجد أثاث تافه يستخدم للجلوس نهاراً والنوم ليلاً، وبه حجرات منعزلة للمرافق والخدمات، ولفت انتباهه منضدة عليها قطع خشبية مصفوفة بأشكال متناسقة، فهم لاحقاً أنها تصوير للمكان الذي يزمعون مهاجمته، ظن في البداية أنه مقر الباشا في القري، إلا أنه بعد تدقيق النظر لاحظ على الأطراف أكوام من الطين تشبه أحد شعاب الدرعية. أخذ بعض الصحب يطرحون أسئلة عن المكان والغرض، لكن القائد تحدث بصوت جهوري مهذب به لكنة خفيفة، راجياً عدم التعجل والتركيز على التدرب، فسارع أحد المشاركين بالقول "لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" فرمقه الرجل بنظرة شزرة يفهم منها بالكف عن الثرثرة. ثم أوضح لهم أن التصوير القابع أمامهم يبين الجزء الذي عُهد إليهم مهاجمته، كما بين لهم اتجاه القبلة وكذلك موقع الجبل المشار له بقطعة الطين، وأشار بخيزرانة معه نحو جزء من المنضدة قال إنه رمز مكان ترك ركائبهم بعيداً، ثم المسير في سكون نحو عمود خشب صغير قال إنه البوابة التي سيلجون

منها، وقسم الحضور إلى فرقتين الأولى من صغار الجسم، الذين سيباشرون تسلق الحائط بالحبال، وكان الجد ذو البدن الضخم مع الفرقة الثانية، التي ستقوم باقتحام البوابة الخشبية، وتم ترتيب تدريب كل فرقة على شغلها صباح اليوم التالي. تسامر بعضهم مع قائدهم الذي قال إنه من أصول هندية، وقد جاء جده للعمل لدى الإمام عبدالعزيز بن محمد، وأن والده عاد إلى هناك ليتزوج من قريبته، التي رغم إقامتها الطويلة في الدرعية ما زالت تتكلم لغة ملبار، وإنه ولد وترعرع في قصر الإمام سعود ووالده، وتدرب هو وأحد اخوته على فنون القتال والرماية، أما البقية فقد اتجهوا للعمل الحرفي. سأل الجد قائدهم "سعيد الملباري" عما اذا كانت بلادهم جزء من بلوشستان؟ فنفى ذلك وأفاده أنهم في الساحل الغربي للهند أيضاً لكنهم، في أقصى الجنوب ويبعدون عن أرض البلوش مسيرة أكثر من عشرة أيام، ومنطقتهم تقع في مكان خصب به الكثير من المطر، على خلاف البلوش ذوي الأرض القاحلة، وبعد أن جاءهم العرب سموها "خير الله" لكن الهنود ينطقونها "كيراله" وهم من أهل السنة وليسوا روافض. اخلدوا للنوم مبكراً وامضوا الأيام التالية في التمرن على اقتحام المباني، أظهر فيها الملباري ومعاونيه قدرة فذة على شن هجمات مباغتة، خارج وداخل المنشآت المحصنة والتعامل مع جنود العدو في الظلام، كما نقلوا لهم قدر جم من المعارف. جلس الجد مع الرجل قبيل عودتهم إلى كتلة، حيث سأله إذا كان قد سمع بمحمد بن قاسم الذي فتح بلاد السند، وبداء نشر الإسلام هناك وهو من أسلافهم بني عامر بن صعصعة، فرد عليه مبتسماً إني أعرف أنه ابن أخ الحجاج الذي قتل بعض الصحابة، بتهمة أنهم خوارج على المروانيين، كما رجم الكعبة الشريفة بالمنجنيق، فهل يسرك أنك من قرابته؟ ثم زاد على ذلك بالقول إن الإسلام قد دخل بلادهم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، حيث أرسل كتب لبعض امراء الهند، ومنهم حاكم ملبار الذي سارع بالدخول في الإسلام، قبل أن يولد محمد الثقفي، فانصرف الجد عن محادثته حيث بدا له أنه يوقر الكبراء فقط. لكن الرجل أحس بذلك فتوجه له بالسؤال عما إذا كان يعرف "ابن بطوطة" فرد عليه انه قراء نبذة من كتابه (التحفة) عن رحلاته من الأندلس وطنجة حتى مصر والشام وفارس ثم الهند وجاوة حتى الصين، فأخبره أن ذلك الفقيه قد زار بلادهم قبل خمسة قرون، وشرح لهم عن مذهبه المالكي لكنهم آثروا البقاء شوافع. ثم عرضوا عليه التوجه جنوباً نحو مجموعة من الجزر في البحر المحيط، لا ترتفع كثيراً عن سطح الماء بل تغمرها الأعاصير أحيانا، وبخاصة في زمن رياح الطوفان (تايفون) وهم يرفضون النصح لاعتناق الإسلام وباقون على الوثنية، واذا حدثهم بعلمه الغزير فقد يجعل الله الهداية على يديه، وجرى ذلك بالفعل وأصبح كافة سكان المالي مسلمون (حالياً مالديف) بجهد مبارك من رجل أمازيغي واحد، وأنتم قبائل الأعراب تدعون العظمة وحب التوحيد، لكن بعضكم زنادقة يحاربون أهل القبلة ويكفروهم ليقتلوهم ويسلبوا مالهم، ثم تساءل عما اذا كان هذا يغضبه؟ فرد عليه الجد بأن ذلك قد يشمل قلة شاذة لا ترمز إلا لنفسها وليس للعموم، وتمنى ألا يكون من الشعوب المبغضة للعرب، أو ممن دخلوا الإسلام "تقية" حيث

هذا رأي أكثرهم، فتبسم ثانية حتى رأى صفرة أسنانه، وأقسم أنه يحب العرب وتزوج فتاة لا تتكلم بغير العربية، حتى ينشأ أولاده على الفصاحة. بعد أيام كان في مجلس اثنان من أبناء الإمام سعود، فحياه الملباري وأشاد أمامهم أن علي بن خثلان غيور على دينه وقومه وعشيرته، كما أنه "جهبذي" متفقه في الدين عارف بأحوال الدنيا والناس، وأضاف لذلك أنه جاد في مكافحة هذا العدو الباغي الذي جاء للدرعية للفساد، لكن الجد لم ينطق بكلمة واكتفى بإيماءة من رأسه، حيث تكتم على الحوار السابق بينهما، أو الإشارة لما قاموا به من اعداد للهجوم على العدو، كما سبق أن حذروا الجميع من التفوه بأي كلمة عن الأمر. اندهش الجد حينما سمع أحد الأمراء يعتب على ابن عم والده، إذ قال إن سعود بن عبد الله (حفيد الإمام المؤسس محمد بن سعود) هادن الباشا، بل زاد على ذلك أن عرض عليه أن يزوجه من ابنة أصهارهم من آل فقيه في ضرماء وهم عناقر من تميم، حيث كان الباشا يتأفف أنهم لم يزوجوه في السابق من نجدية أصيلة، بل من خادمات حبشيات أو هنديات لسن كفوء لنسبه العالي. شعر الجد بالضيق لدخول الفكر في الدرعية نحو هذا المسار الساذج، والناس في البلاد يعانون الشظف مخاطرين بأرواحهم للدفاع عن دينهم وديارهم، والبعض مشغول في أمور لا يعتد بها، وعندما غادر أربعة من أقاربه المكان، سارع للمضي خلفهم عائدين إلى مقرهم. لكنه فوجئ بالملباري يلحقه متمنياً عليه أن يصاحبه لمنزله، فلديه لقاء عائلي يود أن يشاركهم فيه، حيث سيجد رجال يكتبون وعندهم علوم قد تسره، رفض اثنان الذهاب وتوجه البقية معه، عند أحد أبراج صفار لاحظوا وجود عريشة ملاصقة للسور، وحولها أطفال وتفوح من المكان رائحة طبيخ شهي، عندما دخلوا الغرفة السفلية في البرج وجدوا رجل طاعن في السن ضعيف البصر، وحوله شباب بعضهم عليه ثياب رثة، عرفوا أنه والد زوجة الملباري الذي رحب بهم، ثم حدثهم عن ما يظنه البعض أن كل القادمين من الهند هم بلوش، فقال إن الهند بلاد واسعة يسكنها أقوام من أصول ومشارب وديانات ولغات مختلفة، وأنه بلوشي لكن خِتنه من كيرله، كما أوضح أن بلاد البلوش تمتد من كراتشي حتى خراسان في بلاد العجم وغزنة في أرض الطاجيق (أفغان) لكن مدينة غودار قريبة من مسندم في عُمان، لذلك فهي معبر الهنود لدخول بلاد العرب، وأهل ملبار لا يستطيعون ركوب البحر من كالكوت نحو جزيرة العرب، وكذلك البنغال في كالكوتا شرق الهند يلزمهم السير عبر القارة حتى غودار، حيث تنقلهم السفن الصغيرة في ساعات قليلة إلى مسندم، لذا فإن أكثركم يسمون القادمين من غودار بلوش، وهم ليسوا كذلك. ولما سألوه عن سبب قدوم البعض من أرض الخيرات للصحاري القاحلة، رد في حسرة إنه غزو الصليبيين لبلادنا ومحاربتهم لديننا، فقبل ثلاثة قرون جاء البرتغال (البكيرك) ثم تبعهم الهولند والأنقليز والفرنسيس، فتكاثروا علينا وهزمونا بأسلحتهم الفتاكة وأكرهوا كثير من قومنا على ترك الإسلام، وجئنا إلى هنا فارين من التنصير القسري.

قال لهم أن جده قد جاء قبل أكثر من مائة سنة من غودار إلى مسندم، يبحث عن بلاد فيها الإيمان والأمان والعمل، فاتجهوا جنوباً نحو صحار التي لبث فيها مدة غير طويلة، ثم غادرها نحو مسكة التي كانت هي وغوا على الضفة الأخرى، ما تزال في أيدي البرتغاليين، ولديهم بها قلعة بحرية محصنة ويدفعون ايجار للعمانيين، لكن حاكمها رفض بقاءهم فيها. لذا غادروا إلى الرستاق التي كانت عاصمة عُمان زمن النبهانيين، المنحدرين من سلالة يعرب التبعي القحطاني، وهم قوم أشداء تمكنوا من طرد البرتغاليين من معظم أرجاء المنطقة، وهادنهم الانقليز والهولند والفرنسيس، وسيطروا على سواحل غرب الهند وجنوب جزيرة العرب وشرق افريقيا، حتى وصلوا بلاد الزنج وجزر "ما لاقا شيء" لكن توسعهم الشديد اضطرب وأدى لتمرد البعض عليهم، بخاصة أهل حضرموت من بني كثير وقعيط والعوالق. فلما حدثت فتن قرر أبي أن يأخذ عياله ويتجه إلى نجد، فوجد أن أكثر مدنها رخاء هي "العيينة" في أعلى وادي حنيفة هذا. وكان يحكمها رجل عظيم من آل طوق يقال له المعمر، وقد عمل عنده مدة ثم تولاها حفيده "خرفاش" الذي كان أقل منه كفاءة، الذي وقع في زلة حينما تدخل في نزاع بين آل وطبان وآل مرخان، وهم من المريدية حكام الدرعية من بني حنيفة، فعمل وليمة حافلة قتل فيها زيد المرخان وبعض السبعان منكم وقحاطين اليمامة، لكن البعض هربوا من المجلس، ومنهم ذرية مقرن المرخان الذين وجدوا أنفسهم داخل الحريم، فسجنوهن وقالوا أنهم سيقتلون الجميع اذا لم يسمح لهم بالعودة لبلدتهم، ورفض خرفاش ذلك لكن فتاة من أقاربه (الجوهرة) حثت أهلها على حقن الدماء، وخرجت مع قريباتها وخدمهم في صحبة آل مقرن حتى مأمنهم في الوصيل، لكن تلك الفتنة جعلت جدي يعد نفسه للعودة إلى عُمان، فجاءته أنباء عن حدوث فتن هناك أيضاً فبقي محله. وبعدها علم أن دولة النبهانيين (يعربيون) قد سقطت وأصبحت عُمان في حكم قوم آخرين هم ذرية أبوسعيد وهم من "فهم" دوس (زهران) ولا يعرفهم، لذا استقر بشكل دائم في العيينة، التي جاءها بعد سنوات أحد معارف آل معمر من تميم أيضا، يقال له ابن عبد الوهاب وكان أبوه قاضي البلدة ثم ارتحل لحريملاء المجاورة، وكان ولده هذا قد سافر للحجاز للحج، وسكنه لطلب العلم والتفقه الديني بعد أن طلق زوجته، ثم قام بسياحة طويلة في الشام والعراق وفارس، لكنه تأثر بفكر بعض السندوستانيين الذين يتحوطون كثيراً، ويختارون أشد الاجتهادات مما يبعد البعض عن لب الدين، من اجتهاد في العبادة مع حسن المعاملة، لذا نفر منه الكثير فخرج وسكن الأحساء متسامحاً إلى حين، ولما عاد للشدة لم يرتح له كثير من العامة والخاصة، فسكن حريملاء عند أبيه وأخاه الأكبر لكن الخلاف جرى، فعاد إلى مسقط رأسه العيينة. التي آلت ولايتها إلى عثمان بن معمر، فأكرم وفادة ابن عبد الوهاب له، ونصر دعوته لنبذ البدع وزوجه عمته الجوهرة، وهي التي سبق أن عاونت في انقاذ آل مقرن بن مرخان من مذبحة خرفاش، والذي آلت إمارة الدرعية إلى أحد حفدته (محمد بن سعود) وقد كان عثمان رجل ذو

ورع قائماً صائماً تالياً لكتاب الله، لذا أعجب بالشيخ محمد بن عبدالوهاب وأيد دعوته للتقيد بالكتاب والسنة وعمل الصحابة (السلف الصالح) لكن العيينة كان فيها بعض الخوارج الكريهين ممن يكفرون أهل القبلة حتى على الهفوات واللمم، ومن ذلك قولهم عن سادتهم وكبرائهم أن من ذهب لزيارة أي قبر حتى لو كان المصطفى فهو كافر مرتد يقام عليه الحد، فيقتل ويسلب ماله. لذا أوغروا صدر الشيخ وحرضوه على اتلاف القبور، وعدم الاكتفاء بإرشاد الناس لآداب زيارة القبور والقيام عليها كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل. حث المعمر الشيخ على عدم إثارة الأهالي، وأن بعثرت القبور تكون يوم القيامة فقط، لذا يلزم الاعتدال ووعظ الناس بالحسنى، وبخاصة أن البعض قد اشتكوا لدى العريعر، وهو قائم مقام الوالي في الأحساء، وله الإشراف على كافة أحوال نجد، وعدم اشغال الخليفة في إسطنبول ورجاله بالدعاوي، لكن مريدي الشيخ في العيينة ردوا بوجوب التعامل عنوة مع الكفار، وتكررت الحوادث فأرسل الخوالد للمعمر بوجوب إيقاف الشيخ عن أعماله أو إخراجه من البلدة، ثم حدثت مكالمات غليظة بين مريدي التشدد والتعجل وابن معمر. لذا قرر الأمير أن يغادر الشيخ عاجلا ويبحث عن ملاذ آخر وهي زلة عثمان، ورفضت عمته أن تترك زوجها يرحل وحيداً، لذا خرجت معه وأطفالها جنوباً للجبيلة، حيث يوجد بعض طلبة العلم، لكن الناس عابوا عليه ترك عمته تخرج في الفلاة ماشية، فأرسل ركائب وبعض عماله والأمتعة وكان معهم أبي وهو بعد فتى، وأردف البلوشي قائلا إنه أرسل أيضاً خطاب لأحد السبعان في الدرعية لاستضافتهم، ريثما يهدأ الضجيج في العيينة. ثم قال إنه بعد أيام اتصلت مولاته الجوهرة بنت المعمر بزوجة الأمير محمد بن سعود، وكلاهما يعرفانها منذ زمن بعيد وعلى علاقة طيبة معها، لذا وافق الأمير على استقبال الشيخ، ثم تعاهدا على التعاون لنصح الناس لنبذ البدع والالتزام بالكتاب والسنة، وأن لا يقبلوا التهديد من أحد ويحتملوا الأذى، كما احتمله أولي العزم من الرسل ويجاهدوا في سبيل الله. وبين لهم البلوشي أنه ترعرع في كنف تلك المرأة العظيمة الكريمة (الجوهرة) وقراء عند زوجها الشيخ محمد أصول التوحيد، ولما اشتد عوده وبلغ العشرين ضمه الأمير عبدالعزيز مع حرسه، عند وفاة والده الأمير محمد بن سعود، حيث بداء في المشاركة مع غزاة منفوحة، كما ذهب بعد ذلك مع أبيه في غزوة نحو بلاد عُمان، وبعدها بسنوات شارك مع جيش الدرعية في صد هجوم أمير مسقط على البحرين، وطاردوهم إلى قريب من البريمي والشارقة، لكن العمانيون استعانوا بسفن الإنكليز، لذا عادوا للدرعية غانمين. وأردف بالقول إنه قبل أكثر من عشر سنوات، تعرض لإصابة سببت ضعف بصره، ثم جعله الأمير سعود (أبو الشوارب قدس الله روحه) مع مرافقيه للحج، حيث أدى الفريضة ثم زار المدينة وسلم على المصطفى وصاحبيه. ثم سأله أحد الرفاق عما إذا كان الإمام سعود يتأفف من لقب أبو شوارب، ولماذا لم يكن يحفها حسب الحديث النبوي؟ فرد عليه أنه كان يسره أن يدعو له البعض بأن تكون شواربه في عليين، وحديث الحف لم يصححه البخاري، وهو عن الفطرة التي لا يعاقب تاركها، كما أنه لا يطيلها ولا يشبكها باللحية مثل المجوس، بل كانت قصيرة لكنها محسنة ومدببة

الأطراف توحي بالشموخ، ولديه مصريون يعملون على ذلك، ولحيته لم يكن يسبلها حتى تصل إلى صدره، بل يقص ما زاد عن القبضة كما روى ابن عمر، وأشار أن ربيعة أحد أسلاف سعود كان يكنى "أبو شويرب" فخراً. ثم سأله الجد عن أهم ما تعلمه من الشيخ محمد بن عبد الوهاب طيلة السنين التي قضاها في معيته، فقال إن الشيخ دخله الضعف بعد وفاة الأمير محمد بن سعود، ثم أصبح يميل للخلوة في آخر عشرين سنة من حياته، وسمح لذريته بالجلوس لتعليم الناس والفتوى، وقد اشتغلت بالجهاد تلك الفترة، إلا أن أهم ما درسته علي يده هو التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وسنامه "الإخلاص" فقد مثل لنا بتلك المرأة التي تخم المسجد ليلا، وكيف أن المصطفى ذهب لزيارة قبرها والقيام عليه والدعاء لها، فقد كانت تقوم بذلك "مخلصة" لوجهه تعالى، ولو كانت تقبل أن تعطى مال لشاب عملها جرح الإخلاص والتوحيد، مثل ذاك الذي جاهد في سبيل الله وليقال أنه شجاع فجروه للنار. أبى عليهم أن يغادروا إلا بعد تناول شيء من طعامهم، وقد كان قرص خبز هشيم مع مرقة كتف عنز، إلا أنه ذو طعم طيب وزاده لذة الجوع. أقف مع أحبتي لحظات لأتقدم قرن من الزمن، ففي النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين، سمعت سجالاً ساخناً في مجلس أبي رحمه الله، يدور حول عرض حاكم عُمان آنذاك (سعيد بن تيمور) بيع منطقة غودار لبريطانيا مقابل ثلاثة ملايين إسترليني، وغضب البعض حيث لم تمضي سنوات قليلة على فقد العرب (!) أجزاء من فلسطين، وها نحن نفقد جزء آخر من بلادنا للغرباء، واستشاط رجل بأن تلك خيانة من حاكم عمان الراضخ للنفوذ الإنجليزي، ويفرط في جزء من وطنه لقاء حفنة جنيهات يبني بها قصر له، لكن رجل مكاوي ذو منطق رزين ومظهر وقور رد عليه، بوجوب معرفة أن الدولة العمانية آنذاك تحت الاحتلال البريطاني، وقد سمحت لها في القرون الماضية أن تسيطر على سواحل الهند وحضرموت وافريقيا، لقاء مكافحة القرصنة وتجارة الرقيق ولم يعد لذلك جدوى الآن، كما أن المسلمين في الهند الكبرى قد أصروا على الاستقلال، وأن غودار ستكون تابعة لغرب باكستان الإسلامية، والبلوش لا يتكلمون العربية ويرفضون الفرس. وقد فقدت عُمان في القرن الماضي سيطرتها على المناطق الأخرى، ولم يبقى لديها سوى أجزاء من ساحل باكستان، وجزيرة زنجبار في شرق أفريقيا، ورفض أي مقارنة بين ذلك والاحتلال الصهيوني الخبيث لفلسطين. فساد الصمت في المكان والبعض يتطلع إلى الرجل بريبة، حيث أنه سعودي من أصول مليبارية قديمة، لذا تدخل أبي فقال سأقص عليكم ما جرى في مجلس الملك سعود (خزام) قبل أيام، فقد تحدث البعض مثل كلامكم هذا حاضين جلالته للتدخل في الأمر، فقال إنه قد عرض على حاكم عمان خمسة ملايين جنيه، لقاء التنازل عن جودار للمملكة، لكنه رفض حيث رفع الإنجليز مبلغهم إلى أربعة، فأخذ البعض يسبون تلك الدولة المحتلة، والتي اعتدت على السعودية وسحبت منطقة البريمي وسلمتها لعمان قبل شهور، وتريد الآن إعطاء أرض عمانية لباكستان. دار جدل طويل وكان أبي في منتصف المجلس، فقال عم الملك (الأمير مساعد) دعونا نسمع ما لدى ابن خثلان، فقد شارك أجداده في صد هجمات الفونس البوكريكو، وعمل البعض منهم

في عمان ويذهبون إليها في التجارة، فأشار الملك بيده نحوه فقال له رحم الله من أورثك هذه البلاد العظيمة من البحر إلى البحر، وفيها ما يغنيك عن "الداب وشجرته" فإن ابن تيمور لم يتخل عن البلوش إلا بعد معاناة من نزق أهلها، الذين يعرف الجميع أن فيهم طيبون لكنهم القلة. وأضاف إن لدينا مشاكل مع بريطانيا منذ البريمي، والعام الماضي في عدوانهم على مصر مع اليهود وفرنسا، وهذه السنة انقلب عبد الناصر بعد أن سلمه القوتلي زمام الشام، كما أن هناك مصالح للإنكليز ومطامع لشاه إيران بعد أن أعادته أمريكا للعرش قبل خمس سنوات، وليست هناك حاجة لمزيد من التوتر، بخاصة أن باكستان منذ استقلت قبل عشر سنوات تنتهج سياسة حميدة مع مملكتكم والأقربون أولى ببعضهم، وأقترح أن نترك جودار في "كبد أهلها" والقرار لجلالتكم رعاكم الله. اعترض بعض الأمراء على وجهة نظر أبي، قائلين إن "الهند هندك إذا قل ما عندك" ولا يجب تفويت هذه الفرصة الثمينة، التي تجعل المملكة تسيطر على ضفتي مدخل الخليج، وتكون ملاصقة لدولة باكستان الصديقة. وأضيف للأحبة أنه بعد خمس سنوات من ذلك، سمعت حوار آخر في مجلس أبي في مصر، عما كان يجري في أرض عمانية أخرى، هي زنجبار في شرق أفريقيا والتي كانت مركز استيراد للتوابل، وكذب البعض قديماً بالقول أنها مصدر لجلب الرقيق، حيث دبر زعيم جارتهم تنجانيقا (جوليوس) فتنة في البلاد، وجرت مذبحة للمسلمين هناك بعد أن سحب سعيد بن تيمور عساكره، وترك رعاياه يواجهون الذبح على يد النصارى، وكان العرب مشغولون بخلافاتهم التافهة مما أدى إلى سقوط البلاد، وضمها في دولة تنزانيا وتنصير كثير من سكانها، بعد أن تخلى الجميع عنهم وحاكم عُمان يتذرع بقلة المال لديه. إن أهل عمان الكرام والأفاضل لديهم الكثير عن تلك الحقبة، والتي أثرت على نجد طيلة عدة قرون وخلقت تركيبة سكانية فريدة، فلم تعد مكان لقبائل عربية متناحرة، بل غدت بوتقة انصهرت فيها كثير من الشعوب الهندية والأفريقية، فقد كانت مسقط مصدر جلب الذكور والإناث، سواء للعمل أو للتسري أو غيره، وأذكر لكم أنه في منتصف القرن الماضي، كانت البطحاء (جنوب الوتر) مركز لتداول البشر، وأقدم ستوديو تصوير أقامه شخص عماني في الرياض لتسهيل الأعمال عن بعد. لقد قيل الكثير عن حاكمها آنذاك، الذي كانت البلاد في زمنه تعاني تخلف شديد رغم مواردها من التجارة والزراعة والنفط، لكن والدي رحمه الله كان لا يقبل التهويل، فقد رفض القول بأنه عندما بنى قصره لم يقبل وجود مولد كهرباء (دينمو) خشية قتله بتفجير ديناميت! فقد رد على ذلك بأنه سمع بمثل ذلك عن السلطان عبدالحميد، وعن الإمام يحي في اليمن المتوكلية. أما قول بعضهم أن جده كان يسمى الإمام فيصل بن تركي، أي مثل جد الملك عبدالعزيز فقد رأى أن ذلك تشابه لقرب الزمن، وليس مؤشرا على إحدى الغرائب العمانية. وفي عام 1970م كنا نتحدث معه عن قيام ابن سعيد بن تيمور (قابوس) بخلع والده وتولي السلطة في البلاد، لتبدأ حقبة زاهرة جعلت الدولة العمانية في مكانة مرموقة، يفخر بها كل محب للعروبة والإسلام، فسأل الله الرشاد لولاة أمورنا جميعاً. والأن نعود بالزمن (فلاشباك) إلى منتصف عام 1818م عند برج في أعلى مصب شعيب كتلة في وادي

حنيفة بالدرعية، حيث سأل أحد الجماعة جد أبي عن سبب صمته، وما إذا تكدر من بعض أقوال البلوشي ذات الخلط بين الحقائق والآراء، فنفى ذلك بإيضاح أن نباء تزويج الباشا من أصهار الأمير تركي هو ما أذهله، فكيف يسمحون لذلك العلج (ضخم البدن سيء الخلق) أن يعتلي كريمة من أشراف العرب؟ لكنه لما حادث الأمير في ذلك اندهش من جوابه، بأن ذلك خطاء دبره أخوه سعود وعليه أن يحدث الجميع بشأنه، ولا يكتم ما يشعر به عن الأمر. ثم زاد بأن حثه على حضور حفل الباشا بمناسبة نصف شعبان، وهي بدعة غير مقبولة لأن القرآن نزل في رمضان، ثم تذكر إصراره على أن "يتطلع" في المكان جيداً، ولم يفهم مغزى ذلك.

أمضى الجد ليلته في حنق مما يدور حوله، فهناك ترتيب لهجوم جبار لم يعد يعلم عنه شيء، ولا يرى سوى تجهيز لعرس وحفل ديني بدعي، ورفض هو وأكثر قرابته الذهاب للحفل عصر اليوم التالي، لكن بعض الرفاق عادوا منه بحكايات عن ألعاب نارية وسحرة ومسخرة، وما انتشر في المكان من لهو وعزف وغناء ورقص ولعب، من افراد الشعوب المشاركة في تلك الغزوة. لكن بعض سكان الدرعية استمتعوا بذلك، وبخاصة النسوة والصبية والخدم، الذين نفحوا بعض الحلوى والسكريات، أما المقاتلين الذين تنكروا في لباس الفلاحين، فلم يحققوا غايتهم من استطلاع معسكر الباشا، حيث دفعهم الحراس بعيداً لكنهم تعرفوا على بعض المعالم. في الصباح جاءهم مندوب الملباري لترتيب ذهابهم إلى مكان يقال له الظهيرة، شمال شرق البجيري وجدوا فيه دواب نشيطة وعتاد حربي جيد، ثم توجهوا إلى بناء مجاور مهجور وجدوا فيه القائد سعيد، وباشروا على الفور في تدريب على الاقتحام والتسلق. في المساء قال لهم أنه في صباح الغد لن يسمح لمشارك بالمغادرة، ومن لديه حاجة فليذهب لإحضارها ليلا ومن يرغب الانهزام فعليه ذلك قبل الصباح، كان الجميع في حرص على المشاركة في ذلك العمل الفدائي، ولا حاجة لأحد في أي غرض حيث وفر لهم القائد المستلزمات. سرت في الجميع مشاعر الحماس والرغبة في المشاركة في الهجوم الجريء، وأمضوا ليلتهم يعدون أسلحتهم النارية، وعتادهم من المعدن الحاد المصقول (سلاح أبيض) من خناجر وسيوف وكردات، وأدوات القتال الصامت كما أمرهم القائد سعيد. الذي التقى معهم بعد الظهر ليتفقد جاهزيتهم، وما قد ينقصهم من مستلزمات، ثم أخبرهم أنه مثلهم متشوق لمعرفة تفاصيل المنازلة، حيث أنهم مجرد عود في حزمة والقرار لدى الأمراء في المجموعة الأخرى، ثم أوضح لهم بجلاء أن العملية تهدف للقضاء على الباشا، حيث سيتوجه عصراً إلى عرقة لحضور حفل زفاف، مع نخبة من رجاله بينما يكمن له المجاهدون للفتك به في الطريق، وفي حال مصاحبته بعدد كبير من حراسه، ستتبدل الخطة لتكون الهجوم على خزائنه ليلا، لأخذ ما يمكن منها وإتلاف البقية، حتى تندثر قدرته على القتال، ويمكن الهجوم على معسكره والقضاء عليه أو اجباره على الفرار من الدرعية. تقاول الجد علي مع بعض صحبه حول ذلك، فقال أحدهم أنها تبدو تدبير ماكر، لولا أنها تفترض أن الباشا أخرق ومشاوريه وقادة جنده بلهاء، وهم ليسوا كذلك

ولابد أنهم قد أعدوا تجهيزات لمكافحة أي مخاطر، وربما قد حضروا أنفسهم لدرء خطر الهجوم على ركاب الباشا أو خزائنه، وقال آخر إن هلينا الثقة في حكمة قادتنا فهم يرون مالا نراه، وقال الجد إن الأهم هو الالتزام بتقوى الله والصبر فهما مفتاح نصر المؤمنين.

قبل المغرب بساعة جاء الأمر بامتطاء الركائب والتوجه شمالاً، مما فهم منه الرفاق أن الهجوم سيكون ضد المخازن، وتأكد ذلك لما التقوا مع المليباري حيث بشرهم أن السطوة ستكون على غير ذات الشوكة. ثم عند الغسق وجدوا فرقة كبيرة يقودها اثنان من الأمراء، وأدوا فريضة العشائين جمعاً وقدر الجد أن عددهم يناهز المائتين، وبعد أن أشرق البدر في سماء صافية، وحمرة الشفق تنير المكان، امتطوا رواحلهم وساروا في سكون، حتى وصلوا منحدر يتجه غربا عنده بعض الخدم، فنزلوا فيه ثم قسموهم إلى ست فرق، كان عديد فرقة الجد أربعة وثلاثون مقاتل، تنحى بهم سعيد جانبا وقسمهم إلى خمس "خُبر" كان الجد في واحدة من ستة مقاتلين، يقودها أحد بنو عمه من آل خثلان طويل القامة قوي البنية يسمونه "الفيل" ويتولى رئاسة الجميع المليباري، في صحبة ثلاثة من جماعته الأشداء، حيث أمروهم بترك سلاحهم الناري مع الركائب، وأن لا يأخذوا سوى الفرود والجنبيات والكردات. تركوا الدواب والعتاد مع اثنين من العمال الصغار، واتجهوا راجلين بعد أن أرسل ثلاث خُبر مع أعوانه، واصطحب فرقة أهل الأفلاج وآل خثلان في مسيرة ساعة، ثم أمرهم بالجلوس وانتظار عودته من تقصي وضع العدو. كان بعض الرفاق يعانون من العشى، أما الجد فقد كانت الرؤية واضحة له في ضوء البدر، بعد برهة من الزمن عاد قائدهم مع رجلين، وجلسوا قرب النار وأخذ يصور لهم على التربة مكان الهجوم، وأوضح أن الخزائن تتكون من عدة منشآت، وعليهم عدم الاكتراث سوى بأربعة مخازن، حيث سيتولى الآخرون التعامل مع البقية، ثم بين لهم ذلك على الرسم، قائلا إن الموجودات سيجري التعامل معها على ثلاث فئات، الأولى سيتم نقل أكثر ما يمكن منها نحو الركائب، والثانية سنقوم بإتلاف معظمها، والزمرة الثالثة نحرقها قبل المغادرة وبعد نقل القليل منها. سأل أحد الرفاق عن محتوى كل منها وهل من ضمنها النقود، فأجابه أن الفضة والذهب في بناية منفصلة ، وعلينا أن نضع جهدنا فيما أوكل إلينا وندع الآخرين، ثم أوضح أن الأولى تشمل مسحوق بارود (بودره) خام غير مخلوط بالملح أو الفحم والكبريت، والذي تجهز منه خلطات منوعة للمدافع أو البنادق أو الفاشنك، وما يهمنا هو "البودر" النطروني الصافي، وعرض عليهم لفافات منسوجة (خِروج) يعبأ فيها، وشكل لأخرى لبقية المواد، وحذرهم من نقل أي مادة سوى البارود. ثم بين لهم أن هناك غرفة أخرى فيها فتائل وتبغ، وسيوجههم قائد الفرقة لنقل القليل منها وترك البقية، أما الصفة المجاورة فتحوى بذور وأغصان وزهور جافة تستخدم في الطبخ أو تخلط مع التنباك، وهذه لا حاجة لنا فيها وتترك مع البقية للحرق. ثم علمهم صيغة تسبيح معينة، عليهم أن يقوموا بتلاوتها مائة مرة بعد أن يغادر، وعندها يتوجهوا نحو الحائط الجنوبي المواجه لهم،

حيث سيلتقون معاونه لإكمال بقية العمل، لكنه لما طلب من قائد خبرتهم إسماعه صيغة التسبيح لاحظ أنه يهرول فيها، فطلب من الجد إسماعه ذلك في تؤدة حتى لا يخطئوا التوقيت، لكن تلاوة الجد لم ترضه أيضا، لذا تشاور مع معاونيه وقرر أن يذهبوا ويبقى هو مع الجماعتين، ثم سأل اذا كان أحدهم يحسن تقليد صوت نعيق البوم التي تحوم بين أشجار وصخور الوادي، فلم يعجبه أحد منهم لذا صرف النظر، فأعاد قسمتهم إلى مجموعتين، واحدة لمن يتسلقون الحائط بالحبال وأخرى لمن يدخلون مع الباب، وحذر الجميع من إصدار أي جلبة تنبه الحراس، حتى لا يطلقوا عليهم النار فيهب نحوهم، عدد كبير من الجنود المرابطين قرب معسكر الباشا، ويضطروا للانسحاب مهزومين. بعد هنيهة سمعوا صوت صفير خافت، فقام الملباري ودعاهم للتضرع إلى الله أن يثبت أقدامهم وينير بصائرهم ويدحر القوم الكافرين، ثم أرسل أحد رفاقه جنوباً لإحضار الدواب، وتوجهوا جميعاً نحو موقع الخزين، الذي لما اقتربوا منه سمعوا على بعد أصوات رباب وغناء، فقال اللهم اجعلهم في غيهم سامدون. لما وصلوا حائط قصير قال إنه سيتسلق مع الرجال الخفاف، ويقضوا على خمسة من الحرس في الأعلى، بينما يهبط اثنان ليفتحوا الكوة، وأعاد الوصية بأن لا يحدثوا أي أصوات، ويسارعوا بقطع حناجر عساكر البغاة حتى لا يصدر منهم سوى شخير ضعيف لا يسمعه الآخرون. دخل الجد مع الفيل وبقية الرفاق حيث الظلمة حالكة، فسمعوا أصوات في حجرة وشموا رائحة التبغ، ففتحوا الباب بهدوء والتفت إليهم أحد العسكر الخمسة بكلام غير مفهوم، ومد يده كأنه ينتظر شيء من أحدهم، فسارعوا بالانقضاض عليهم وحز حناجرهم بالسكاكين، أما الفيل فقد ربض على رأس غريمه فسمعوا قرقعة رقبته فشلت حركته ومنطقه، وقال لهم هذا خير من وسخ هدومنا بدمه. أخذوا يبحثون عن البارود فلم يجدوا شيء منه، ثم دخل عليهم المليباري ممسكاً غلام أمرد صغير في فمه لجام ليف قوي، فقال رجل لم نجد البارود فرد بحدة هل تظنهم بلهاء يشعلون تبغهم قربه، ثم سأل الغلام هامساً عن مكان البودر، فاتجهوا جميعاً خلفه حيث ثلاثة من العسكر معهم النشوق والسعوط والشمة، فسارعوا للقضاء عليهم وأرشدهم الغلام إلى حفرة عمقها قامة ونصف، مغطاة بجلود مفروشة على عوارض خشبية، حيث وجدوا فيها لفافات بارود أسفلها أسطوانات خشبية، تدور عليها ثلاث حلقات حديدية اثنتان في الأطراف، أما الثالثة ففي الوسط وهي أكبر منهما، بحيث كانت الأسطوانة منبعجة للخارج، وعليها حروف وأرقام كتبت بمداد أحمر. شهق أحدهم "هذه هي البراميل" وباشروا فوراً في رفع اللفافات أولا، ووجد الجد أنها ثقيلة عليه فقل له أحدهم إنها مائة رطل، ثم بين له أحد الرفاق أنها عشرون وزنة، أمرهم القائد سعيد بإخراج البارود عند الدواب، فوضعوها قرب الباب لما لم يجدوا أحد، وقال لهم المعاون لقد أبقيناها بعيدا حتى لا يسمع العساكر صوتها ويفطنوا. كانت البراميل أقوى وأسهل في الدحرجة، حيث يتعاون ثلاثة في رفعها من الجورة ويتولى آخر ركلها بقدمه للخارج، ولما شاهد قائدهم الانهاك قد أصابهم، وهم مقاتلون كبار لم يعتادوا مثل هذه الأشغال، وجههم للجلوس في روشن صغير أعلى إحدى الغرف، حيث أحضر لهم خادمه الماء والقهوة، ثم بعض

من طعام جنود العدو، وغادر هو شرقاً لأمر ما. من مكانهم سمعوا صوت عزف وغناء على بعد، وقال أحد الجماعة أنه رأى في ضوء البدر راقصة وسطهم، وقلق الجد من ذلك حيث يعني أن بقية الفرق لم تكمل ذبح الحراس في المكان، وخشي من انكشافهم لبعض عساكر البغاة. بعد قليل عاد القائد بنبآء قرب وصول الدواب، لذا عادوا لحمل الأشياء وإتلاف ما لا داع له مثل التبغ ولفافات من أغصان جافة وبذور، تبدو من محسنات الطبخ أو مسكنات لأوجاع الرأس والصدر والبطن، كما كانت هناك كميات كبيرة من الملح والكبريت، وقطع من الحديد والرصاص والفتيل، أخذ بعضهم شيء منها لاستخدامه الخاص أو لبيعها في أسواق البجيري، وسأل رجل قائدهم عن خزائن الفضة والذهب، فرد عليه سعيد بأن لله خزائن السماوات والأرض فساد الصمت. تنصت الجد على صوت معازفهم فلم يسمعها، فتحقق أنه قد تم الاجهاز على العدو، ثم سمع أصوات الدواب قادمة نحو بوابتهم، فسارع للتوجه نحوها لمساعدة العمال في الترحيل. كان الجد منشغلا في تحميل الدواب ونقل الغنائم، حينما أشار له أحد أبناء العم نحو الشمال، فشاهد لسان من اللهب يرتفع من منشأة تبعد عنهم نحو ثلاثمائة خطوة، رغم أن النار كانت تبدو ضعيفة إلا أنه شعر بالقلق، حيث سيكتشف عساكر مخيم الباشا ما يدور حولهم، ويبادروا للهجوم قبل استكمال العملية، وقد يصلهم مدد من آخرين مما يصعب إتمام ما جاءوا لأجله. من وسط الظلام جاءهم القائد سعيد مهرولا، وصاح "يا بن خثلان جنبوا سريعاً" وأمرهم بأخذ الركائب نحو الظهرة، وفي تلك اللحظة تبينت زيادة ارتفاع ألسنة اللهب نحو عنان السماء المظلمة، حيث غطت أدخنة كثيفة ضوء القمر. ولم يجدوا بد من الإسراع جنوباً وبتر العمل، فامتطى البعض الركائب بينما هرول الجد علي راجلا، يلاحق السير الوئيد للدواب المحملة بالأثقال، ثم تبين له أن النيران خلفه قد زاد اشتعالها حتى أضاءت الدرب أمامه، فتوقف والتفت نحوها فشاهد ما أثار الرعب في قلبه، فقد اشتدت ضراوة النيران، ودار في خلده أن حريق هائل قد شب هناك، فدعا ربه أن يسلم الرفاق قربها. حث الخطى ليدرك القافلة وعندما اقترب من المؤخرة، برق ضوء ساطع يكاد يخطف الأبصار، ثم تبعه دوي صيحة كاد أن ينخلع لها قلبه، كان صوت انفجار طاغي يصم الآذان، وشاهد أمامه بعض الدواب تتعثر، حيث تساقطت من السماء قطع من الخشب والمعدن والحجارة، ولم يدرك ماذا جرى وما عليه أن يفعل لينجو بنفسه، فلم يرى بد من الركض الذي لم يجدي شيئاً، حيث أحس بحرارة شديدة في ساعده الأيسر، أعقبته ضربة قوية على أم رأسه، فهوى على وجهه محاولا الوقوف مرة أخرى فخارت قواه، وشعر بقرب منيته وبدأ يتشهد ويسبح ربه، وأخذ الركام يتساقط حوله وشعر بألم شديد في ظهره عند الكتف، بعدها لم يعد يعي ما يدور حوله سوى أصوات صراخ ودوي يعم المكان.

استيقظ الجد وهو في حالة مضطربة، غير مدرك للمكان والزمان والحال، ثم سمع صوت خافت بجواره يهلل، ورأى رغم القتامة في عينيه زول شخصين بجواره، تقدما لتقبيله والثناء على الله لسلامته من الشر. مضت لحظات وهو بين الغفوة والصحوة، لم

يستوعب أثنائها ما يدور حوله، ثم بداء يسترجع آخر ما جرى له أثناء اقتحام مخازن العدو، وأنه قد أصيب من انفجار مفاجئ لم يعرف كنهه ولا ما حدث له، بعد قليل أخذ يستمع إلى كلام الشخصين بجواره، ويحاول تمييز ملامحهما وما يقولانه، ثم أغمض عينيه لشدة الضوء في المكان، وأخذ يعتصر ذهنه وحواسه لإدراك ما يجري حوله. ورغم استمراره في النعاس إلا أن شعوره بألم شديد في ذراعه وفخذه منعه من النوم، فبقي يتأرجح بين الصحو والغيبوبة، وبعد مدة لم يعرف إن كانت طويلة أو قصيرة، سمع بوضوح نداء الحق يدعو "حي على الصلاة" فتطلع حوله، وكان الضوء الساطع قد خف وطأه على عينيه، فأخذ يقلب بصره في المكان فرأى خمسة رجال، مستلقين على طُراحات ملقية على الأرض، بعضهم يئن من الألم وآخران لا يقدرون على الحراك، ولا يوجد غيرهم في ذلك المكان. بداء يتفحص نفسه ويتلمس مواضع الأوجاع في بدنه، فتبينت له عصابة ملفوفة على رأسه، وضمادة مع جبيرة صغيرة على ذراعه الأيسر، كما توجد كتلة من القماش مربوطة على ظهره وصدره، أما رجله اليسرى فلم يسعه تحريكها، حيث عليها ثلاثة أعواد من خشب شدت بإحكام على الفخذ وحتى منتصف الساق. دخل عليهم رجل قصير القامة عليه لباس مستنكر، كان معه أكوب اعطى الجد أحدها ليشربه فلما سأله عن ماهيته بدا أنه لم يفهم، وكلمه بلسان أعجمي تشوبه عربية ركيكة بأنه دواء، واستفسر منه عن المكان قال "بيمرستان" ولم يفهم قصده، فكلمه أحد الراقدين جواره بأن الرجل لا يحسن الكلام. جاء للجد ابن عمه وأحد العمال، وأعادوا السلام عليه شاكرين الله على نجاته، وأفاده أنهم لما رفعوه من جوار تلك البنايات العشوائية، كانوا في شك من حالته فقد كانت دمائه تنزف بغزارة، وقد أصيب بكسر في رجله وذراعه، مع شج في رأسه وحروق في أجزاء من بدنه، ثم أتوا به إلى هنا حيث قدموا له الطبابة لجراحه وجبروا كسره، والعافية من الله فدعوه سبحانه أن يسبغها على أحبتهم وصالح المسلمين. لما كرر السؤال عن حال المرافقين قيل له عليك الحرص على نفسك، وسنحدثك بكل ما لدينا بعد أن تسترد بعض عافيتك، وقد أمضى الليالي اللاحقة في سهاد وضنى، يصلي على ذلك الفراش ألذي أكل الدهر عليه وشرب، يخدمه عماله فطلب منهم فراش من عندهم، ويعوده القرابة والأحبة وبعض الصحب، كما يأتي عنده رجل فارسي يعاين الضمادات والجبيرة، وفهم أنه المداوي الرئيس. ذات يوم جاءه رجل يسعى ومعه اثنان من معاونيه، الذين أمرهم أن يضجعوه على جنبه الأيمن، وأمروهم أن يعينهم على نفسه حتى لا تتأثر الجبيرة، ولما سأله عن الأمر قال إن الجرح الغائر في كتفه بجواره حرق، وربما أن شظية مشتعلة قد أصابته بذلك، ونخشى أن يتقيح المكان وقد اشترى لك أحد بنو عمك "طوز الحروق" الذي لا يوجد لدينا وثمنه مرتفع، وسنضمد به جرحك حتى يبرأ عاجلا، فدعا ربه أن ينفع به ولا يكل عليه فالعافية منه وحده، وبعد الفراغ طلب مشاهدة ذلك الطوز، فقالوا إنه لك وعند وسادتك فربما يلزمك بعد أيام، وقال له أحد المعاونين أن يحافظ عليه فإن له مفعول السحر، وليس في "الشِفَخانة" شيء منه وقد يحتاجه أحد القرابة، ولما سأل عن ذلك ردوا عليه هذا هو ما يسميه لوبيك مصر، أي الليبيون في غرب الإسكندرية. لما

انفرد أخذ الصندوق المعدني الصغير الذي فيه الطوز، أو مثلما سماه أحدهم مسحوق الحروق، فلا حظ أنه كما الرمل الناعم فيه نباتات مطحونة، مشوبة بقطع دقيقة من أجزاء حيوانية كريهة الرائحة. جاءه الخادم بمرق طيب وكان المداوي قد نصحه تجنب الطعام الصلب، وقال له لقد وجدت في غصيبة سوق عامر بمصلحات المذاق لم يعد الكثير يرغبون فيها، وقد ذبح أحد بنو العم "عناق" اختصك بطرف منها، فحمد الله وسأل عن مطبخ الخوص الذي أوصاهم ببنائه، فبشره أنهم قد أتموه على أكمل وجه، وجعلوا مكان النار في القرنة التي بين السور والبرج لئلا يعلق اللهب في الجريد، والنار القوية جعلوا لها معزل بعيد قرب التنور، فطلب منه الجد إعداد قهوة يكثر فيها حب الهال والزعفران. زاره ثلاثة من القرابة وقد تحسن حاله قليلا مع أوجاع مبرحة ليلا، وسأل عما جرى في تلك الليلة فرغبوا تأجيل بحث ذلك، والاكتفاء بالدعاء لرب الناس أن يزيل عنه البأس. في اليوم التالي لاحظ عند فراش جاره المصاب رجل عليه سمات الوقار، فأمر عامله أن يقدم لهم القهوة، ثم سأل الرجل عن هويته ولما عرف عنه قام مسرعاً وقبل رأسه، رغم أنه أكبر من الجد سناً ودعا الله له بالشفاء، وسأله اذا يعرف حمد بن خثلان راعي نعام والحاير، فأجابه أن ذاك أبي وقد توفي في العام السابق، ثم استفسر منه اذا يعرف سميه حمد بن شايع، الذي عمل مع والده قبل ثلاثين سنة في أرضه بالحريق ونعام، فلم يذكر الجد شيء عنه، فقال له ذاك "هو أنا" ثم استرجع له حادث جرى له وهو لم يبلغ العاشرة حينما تسلق نخلة ولم يحسن النزول منها، وبين له أن من أنزله أحد الخدم ومحاكيك، لم ينسى الجد قط تلك الواقعة لكنه لم يتذكر الأشخاص، في خضم تلك الأوجاع الكريهة. اقترح الخادم أن يسكن مع بعض الرفاق في بيت مجاور للمشفى، حيث ينهكه السير من كتلة حتى غصيبة، وبخاصة أن الأجرة قليلة حيث عشرات المنازل هجرها أهلها لما بدأ الحصار، ولكي يكون قريباً من الجد ويقضي له لزومه.

كان مع أحد المصابين رجل من العرينات، سلم على الجد ودعا الله له بسرعة الشفاء، واستفسر عن بقية جماعته من آل خثلان وسبعان الحاير ونعام، وأثنى على إخلاصهم في الجهاد لوجه الله فقط، وعدم حبهم للوجاهة الزائفة أو السمعة، فقد استشهد منهم واحد في الهجوم على خزين الباشا وجرح ثلاثة، لكن ذلك لم يكن بلا طائل فقد تلفت كل مؤونة وعتاد البغاة، وهم الآن في حيص بيص وحبذا لو تشن عليهم غارة قوية تبيدهم، قبل أن يصل إليهم المدد من بعيد. لم يكن الجد علي بن حمد في حالة تسمح له بالجدال أو حتى الحديث المطول، لذا سأل الله "العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة والذرية" لذا اضطجع في غم وكدر مما سمعه. شعر صحبه المصابين بما في خاطره، فلما دخل أحد العاملين يفحص مصاب في غيبوبة وصل في الصباح الباكر، وطلب منه آخر أن يزوده بشراب مسكن للألم فلم يجبه، لذا قال أحدهم إن هذا ليس طبيب، بل هو حلاق وحجام وختان وقلاع ضروس! وقال آخر ويحك ما تريد من المسكنات؟ فقد نُهي عن المخدر والمفتر وهو منها. سُري عن الجد قليلا بسماع

مهاترات المرضى، لكن الكدر والكآبة ملأت صدره، وعندما جاءه العامل سأل عن ذاك القريب الشهيد والمصابين، ولما أخبره أن جراحهم طفيفة سأل الله أن يجعل ابن عمه في عليين، ويسارع بزوال البأس عن البقية. أحضر الشايع معه طعام لصهره وللبقية، لكن الجد لم يستسغه لشدة أوجاعه، وتجمل مع الرجل بسؤاله عن غصيبة هذه، فسارع بالرد قائلا إنه غادر نعام في مطلع القرن (نحو 1201هـ) والتحق مع قريب له يعمل مع الإمام عبد العزيز ابن مؤسس الإمارة، وجد الإمام الحالي عبدالله في الدرعية، ولم يغادرها منذ ثلاثين سنة وما زال يسكن غصيبة، التي هي أقدم أحياء المدينة الخمسة، ووعده أن يقص عليه بعض ما عرف عن هذه المنطقة، بعد أن يسترد شيء من عافيته. فحص جبيرته رجل بدا أنه من أهل الشمال، وتلمس أماكن في فخذه أحدثت له ألم شديد، فبشره الرجل أن ذلك يعني بدء زوال البأس بعون الله، ثم قدم لهم العامل القهوة فتحدث عن هذا المشفى، الذي بدئ في بنائه زمن الإمام عبد العزيز قبل عشرين سنة، ثم وسعه الإمام سعود وجعله لعلاج أهل بيته ورجاله، بعد أن دانت البلدات القريبة كلها لإمارة الدرعية، وخفت حدة القتال في الجوار وغدت فيه أجزاء لعلاج كل مبطون أو مصدور، ورغم صغر حجمه إلا أنه كان يحوي قسم لقابلات التوليد وعلاج عمال البناء والمزارعين، وبين أن بعض المهرة في الطب وبخاصة من غير العرب، قد هربوا من الدرعية قبل شهور، ولم يبقى إلا القليل منهم كما نقصت الأدوية وآلات العلاج، ثم قال أنه قد تعلم تجبير الكسور في العراق، حينما كان مع الشريف "الجربا" شيخ شمر، لكنه بعد ذلك ارتحل إلى "إسبتاليه" في شارقة عُمان، يقوم عليها رجال من كنيسة الكاثوليك البرتغال وأخرى للبروتستانت الإنجليز، لكنها كانت تتركز على علاج البحارة الأجانب وتجار الهند. أثنى الجد على معارفه وخبرته وسأله عن مراجعه فقال إنه قراء كثير من كتب قدماء الأطباء، ومنهم جالينوس الإغريقي و"ابن سينا الرئيس" الذي كفره البعض، لكن الرهبان في الإسبتاليه يستندون على كتاب القانون ويسمونه "ابيرس" وجميع من كتبوا في الطب خلال القرون الثمانية الماضية نقلوا منه، ولدي صفحات من منسوخات في عهد العباسيين، عن "أنباء الأطباء" والدواء والأطباء وغيرها، وما زالت أطلب المعرفة في هذا الفن. ولما سأله عن زمان برؤه وتمكنه من القيام والمشي، نصحه بالصبر وأنه بعد جمعة (أسبوع) أو عشرة أيام، قد يزيل جبارة ذراعه حيث أنها ليست مكسورة وإنما متصدعة، ثم أضاف أنه إذا كان لديه دراهم فيمكنه شراء جبيرة أفضل لفخذه بنحو عشرين ريال فرانسة، حيث سرق الشطار ما لدينا وباعوه للتجار.

في ظهيرة يوم جاءه حشد من أقاربه وأهل الحريق ونعام والحوطة، وبعد سؤالهم عن حاله قالوا في صوت واحد أنهم يلزمونه بمغادرة المكان في يومه، وأنهم أعدوا له سرير يحمله أربعة رجال يوصلونه لدياره في أربعة أيام، حيث يطببه ناسه ويرعون حاله ويقضون شئونه، وأن بقائه في هذا المكان السيء لا طائل منه، وأنهم لن يقبلوا منه أي مماطلة في الأمر، وعليه أن يقدر مسيرهم إليه ولا يرفض كما فعل سابقاً. لاحظ

الجد شدة عزمهم لمخالفة رغبته في البقاء، والعودة للجهاد فور تحسن حاله، لذلك طلب منهم أن يذكروا الله كثيراً ثم يبينوا له الوضع الحربي في بطن الوادي، وأحوال المجاهدين وقادتهم، فسارع أحد أبناء العم بالقول أنها أخيب حال رأيناها، وأحرص على نفسك العليلة ودع عنك السلاطين. شرح له أحدهم أن الكثير ذهبوا للإمام عبدالله، لحثه على القيام بهجوم كاسح ضد الترك الذين فقدوا مؤونتهم، وقبل أن تصلهم امدادات قوية تعوض عما تلف في حريق الخزائن، لكن بعض من حوله ثبطوا عزيمته وأوصوه لعمل مصالحة أفضل مع الباشا في ضعفه. الذي أرسل إليه بأنه يريد وقف الحرب لقرب رمضان، وقد كتب لوالده في مصر لإلغاء شرط استسلامه وذهابه عنده، واقترح على والده أن يذهب الإمام وإخوته إلى أي بلد يريده بعيداً عن نجد لعشر سنوات، وأن يغادر إبراهيم الدرعية أيضا ويترك كتيبة من قواته لحماية السكان، الذين سيرعى شؤونهم أمير نجدي يعينه هو، على أن يتعهد الإمام بطاعة ولي الأمر السلطان محمود، وأرسل مكتوب بذلك مع رجل يقال له خازن دار. أعطى الرجل صرة كبيرة بها ليرات ذهبية، وأهدى للباشا سيف مزخرف بالذهب ومرصع بالياقوت، لم يرى عند العرب والعجم ما يشابهه، وهومن تركة والده "أبو الشوارب" وقال للمرسول أن يبلغ الباشا تحياته، وأنه لا يعلم شيء عن احتراق المخازن، وسيرد على المكتوب بعد ثلاثة أيام. ثم قال للإمام عمه عبدالله والشيخ علي بن محمد، أن عليه أن يقبل الصلح لحقن دماء المسلمين، وتجنيب النساء والشيوخ والأطفال الويلات، لكن إخوته الصغار رفضوا ذلك، وتشبثوا بأن الإمارة لهم وذريتهم ويجب عدم التنازل عنها، فوقع الاضطراب في نفس الإمام ولم يرد على الباشا. وأضاف أحدهم أن العايذي قد أخذ يجمع خُمس ما لدى أهل العارض، ويقدمه للترك معاونة لهم في الحرب، وأما موجوداتهم الخفية فقد أرسل من يشتريها نسيئة وبسعر مرتفع، فتوفر لدى العدو كمية من الذخيرة والطعام تعينهم على البقاء، كما أرسل الباشا لقادة بلدان العرب في الوشم والقصيم والحجاز ليزودوه باحتياجات جنوده، كما سأل والده في القاهرة أن يبعث المدد سريعاً، إضافة لما طلبه من ولاة العثمانيين في البصرة والشام، ليرسلوا الطعام والعتاد بدل ما احترق، وأشد ما ينقص عساكره هو التبغ والشمة. لكن الجد علي رد عليهم بحدة، قائلا إنه لن يرحل إلا بنصر حميد أو يموت شهيد، رحل الرجال ولم يبقى لديه سوى اثنان من بنو عمه، أعادوا الإلحاح عليه ألا يبقى في التهلكة، فقد تبينت الأمور وليس لأحد حاجة في أن يقتل نفسه، فسأل الله أن يرضى عن الصحابي أبي أيوب الذي قال إن التهلكة هي ترك الجهاد. في اليوم التالي قال له أحد جيرانه المرضى، إن الله قد حكم أن ليس على المريض حرج، وليس على الأعرج حرج، وهو الآن جريح كسير كسيح، فليس عليه حرج أن يذهب عند أهله، حتى يتماثل للشفاء ثم يعود، والمسافة ليست بعيدة والمشقة محدودة، لكن أنى له قبول ذلك والإصرار الخثلاني مستحكم عليه.

استهل شهر رمضان والجد مازال قابعاً في فراشه، يعاني آلام شديدة من الإصابة والحروق في كتفه، وضمادات ساعده التي تُحدث حكة مؤلمة، أما جبيرة الفخذ فتسبب

مضايقة لا تطاق، وألزمه الأطباء بعدم الصوم لكنه لم يطاوعهم، فكان يصوم يوم ويفطر آخر. وزاد من وطأة المعاناة شدة حرارة الهواء في الدرعية في منتصف برج السرطان، وكان العمال يجهزون له طعام طيب، ويُجلب له الماء الزلال من أحد قلبان الوادي القريبة، لكن طول ساعات الصيام تزيد المشقة. ولما قرر المجبر إزالة الضمادات عن ساعده، شعر بكثير من الارتياح وتناقصت آلامه، وذات ليلة جاء نحوهم الشايع ولديه متسع من الوقت، فقرر أن يكمل له رواية أحوال غصيبة كما وعده سابقاً. بداء بالقول أن غصيبة وغبراء هما أقدم قريتين في هذا الوادي، ثم عُمرت مليبيده في الزمن القديم، أما البجيري والطريف فهما حديثتان، والوادي من أعلاه (الحيسية) حتى أسفله جنوب شرق الخرج (السهباء) يسكنه بنو حنيفة، منذ العصر الجاهلي ومشهور من أهله الكثير، مثل ثمامة بن أثال الصحابي الذي استأذن الرسول لقطع ميرة الحنطة، من "خرج" اليمامة عن كفار مكة، فرفض ذلك لأن الله لم يقطع المطر والزرع عن كفار الأرض، وتجويع البشر أو البهائم ممنوع في الإسلام، ومنهم أيضاً مسيلمة الكذاب الذي أسلم لكنه بعد وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام ادعى النبوة. وأرضهم من تلال العرمة شرقاً حتى رمال الثويرات شمالا، وأسفل طويق غربا وبرك جنوبا، وفي سنوات القحط يبحثون عن "الخصب شمالاً" فيصلون بأنعامهم إلى الشام والعراق، ويتركون عمالهم لحراسة وخدمة أملاكهم في عارض اليمامة، ثم يعودون بعد نزول المطر. وبقوا كذلك منذ العصر الجاهلي حتى غزو التتار لبلاد العرب في القرن السابع، حيث تزايدت جموع الزاحفين للمنطقة من العراق والحجاز واليمن، مما أحدث احتكاك ونزاع على المراعي في وقت الجدب، سواء بين بنو حنيفة نفسهم أو مع قبائل أخرى. ثم في القرن التاسع تكاثر بنو حنيفة والقادمون للمنطقة، حيث يوجد آل درع في معكال ومقرن (منفوحة) وآل دغيثر في غصيبة، وقدم إلى جوار الوادي أقوام من طوق (تميم) العناقر وآخرون من قحطان ومن عنزة، وبينما كان ناس من الدروع يقطنون غرب القطيف (عين دار) شرق العرمة حيث انتجعوا في وقت الجدب، لوجود آبار(سطحية) غير عميقة هناك يقال لهم المريدية، يسكنون قرية يقال لها "درعا" ربما لأنها مكشوفة أو نسبة للدروع، فدعاهم قرابتهم في معكال للقدوم أثناء نزاعهم مع آل يزيد، وأسكنوا مانع بن ربيعة المريدي غصيبة، وتهادنوا مع آل طوق ليبقوا في ملهم والعيينة (أعلى الوادي) بعيدا عن المليبيد. ولما ضاقت غصيبة بالسكان وهي محصورة في مثلث بين شعيب قليقل والوادي، قرر ربيعة بن مانع في مطلع القرن العاشر بناء مدينة جديدة، في السفح المتسع شرقاً على الضفة الأخرى من الشعيب، شمال ما أصبح لاحقا منطقة البجيري، وسماها على بلدتهم القديمة "درعا" ثم غدت الدرعية قبل بناء قصور الطريف. وأردف الشائع قائلا إن ولد ربيعة موسى، لما تولى الحكم قرر التوسع بإخراج آل دغيثر من وادي حنيفة، نحو وادي العمارية (أبا الكباش) ثم تشتتوا بعد ذلك في نجد والقصيم، لكنهم في هذه الحرب قاتلوا مع أبناء عترتهم (المريدية) وفي غرفة مجاورة يرقد مصابين منهم. ولم يتمهل الرجل حتى يسمع رأي الجد فيما يقول، بل واصل كلامه بأن حفيد موسى "مرخان بن إبراهيم" قد وطد سيطرة المريدية على وادي حنيفة، لكن

في بداية القرن التالي ظهر الانقسام بين ذرية مرخان، وبخاصة ولديه مقرن وربيعة اللذان تنافسا على الحكم، وتفاقم الحال للأسواء حينما قتل وطبان ابن ربيعة ولد عمه مرخان بن مقرن، في حادثة غير معهودة في حنيفة كما هي شائعة في قبائل العراق، التي أصابتها دعوة "سعد" الغاضبة رضي الله عنه، حيث يقتل افراد العشائر بعضهم البعض غيلة وغدرا، وينشروا الفتن والضغائن الخسيسة. لكن آل مقرن تعاملوا بحكمة وحزم مع ذلك، وتقرر إخراج آل وطبان إلى الزبير في أقصى شمال شرق نجد قرب البصرة، حيث استقروا هناك ولم يرجع للدرعية إلا القليل منهم. وفي مطلع القرن الحالي (12هـ) تولى أحد حفدة مقرن "سعود بن محمد" الإمارة في الدرعية، واستمر عشر سنوات يعمل على رخاء وقوة المنطقة، ثم بعد حادثة خرفاش الكريهة وعواقبها آلت القيادة إلى ولده محمد بن سعود، الذي أحدث نقلة جذرية واسعة جعلت الدرعية إمارة كبرى، تخضع لها أرجاء جزيرة العرب، وبخاصة في عهد ولده عبدالعزيز ثم حفيده سعود، الذين واصلوا حركة الإصلاح الديني ونبذ البدع، بالتعاون مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. لكن الإصلاحات واجهت عداوة من مدعي الخلافة الإسلامية التركي في إسطنبول، فأرسل جنوده الذين نراهم الآن في بطن وادي حنيفة، يقتلون ويهدمون ويفسدون فعليهم من الله ما يستحقون. ثم قال إنه سيغادر لارتباطه بالسحور مع رفاقه، مع تساؤل عما إذا أقلقهم بروايته التاريخية، فقال أحد المرضى أنه قد آنسهم بذلك، لكن الجد رد عليه بأنه لم يشر لتولي آل قبس الإمارة قبل مائة سنة، كما أنه تجاوز حادثة مصرع مرخان بن وطبان على يد إبراهيم، وكذلك مقتل الأمير مقرن بن محمد، وأمور أخرى يبحثها معه في زيارة لاحقة، لكن المهم هو أن في كل جماعة هناك أبرار وفجار.

بعد مرور أكثر من شهر على إصابة الجد، أحضروا له جبارة قوية لرجله صنعت بشكل متقن، تمكنه من الوقوف متكئا على شخصين بجواره، وبعد أيام قليلة اشتروا له بخمسين روبية عكازين لم يرى مثلهما من قبل، حيث يضع الواحد من جهة وسادته العليا تحت ابطه، وفي المنتصف توجد دعامة يمسكها بيده فتحمل ثقله للأعلى، ولا يرتكز على قدمه اليسرى قط. مكنه ذلك من التجول في المكان بمشقة أقل، مما دفعه لطلب مغادرة المكان، حيث دبروا له سكن مرتب مجاور للبيمارستان، فيه سرير يعلو عن الأرض أكثر من ذراع، مما يسهل القيام والجلوس مع العكاز، وهو محل جيد التهوية تهب عليه نسائم شمالية معتدلة الحرارة. أحضر له أحد القرابة ثمان أوراق ذات حجم أكبر من القراطيس المعتادة، وعليها كتابة بحروف غير عربية لكنها على هيئة واحدة، وليست بخط قلم يدوي بل تبدو ذات شكل مُصنع، وأخبره أنها صحيفة مكتوبة بطريقة الطبع المِدادي على لوح الخشب، وقد جلبت من مسقط حيث البحارة الانجليز يبيعون ما يفيض عن حاجتهم بثمن زهيد، كما بين له أن الصحائف تصدر دوريا كل جمعة، وتحوي أخبار بلادهم ويقبل الكثير على شرائها لمتابعة أنباء ما يجري عندهم، رغم عدم قدرته على قراءة ما حوته الصحف، إلا أن العمل قد أعجبه وتمنى

لو يحدث ذلك في بلدان العرب. شاهد ذلك أحد العمال الهنود معهم، فقال إن هذه صحيفة بالية لأنه قراء تاريخها قبل سنتين، وهي تغدو بلا فائدة إذا تقادمت أخبارها، وبين أنهم في دلهي يحاولون منذ زمن عمل مثل هذا بالأوردية ولم ينجحوا حتى حينه. قال آخر أن في قصر المُريح (قرب سلوى الطريف) عدة مجلدات لمصاحف مطبوعة ومجلدة وموشاه، ينوف عمرها على مائة سنة، جلبت له من عند الطليان، حيث كانت إسطنبول تمنع طبع القرآن الكريم على معدات النصارى حتى زمن قريب، ثم اشتروا آلات طباعة من بروسيا (المانيا) على رسم تركي يشبه الحروف الفارسية، لكنه يباع بثمن غالي، وأوصى الجد البعض أن يبتاعوا له مصحف عثماني مهما غلا ثمنه. سمع في مسكنه ذاك رماية متقطعة أكثر مما كان يسمعه في المشفى، حيث حدثت طلقات نارية في الأيام الأولى لإصابته، لكنها تضاءلت بعد ذلك وبخاصة بعد دخول رمضان. كان المنزل لا يرتفع عن الطريق سوى عتبة واحدة، وقدر أن من السهل عليه أن يذهبوا به للمسجد المجاور، لأداء فريضة العشاء ثم القيام، ووضعوه في أقصى يمين الصف الأول، ممداً ورأسه في وضع أعلى من قدميه ووجهه للقبلة، ورغم وجود بعض المصلين معه يعانون من اصاباة، لكنه وجد في الأمر مشقة وحرج فركن للصلاة في مسكنه.

بعد مغرب آخر أيام الشهر فوجئ بأربعة من قرابته يأتون عنده، حاملين سرير خشبي يشبه النعش وأمروه بالتمدد عليه ليحملوه مع اثنين من الخدم، وتوجهوا نحو مقر اقامتهم في كتلة، احتاج الأمر جهدا مضنيا ليهبطوا به منحدر قليقل، وعند بدء السير في الباطن سمعوا دوي انفجار بارود، لكن أحد العمال طمأنهم أن الترك يعملون "شينك" ليلة العيد وهو غير مؤذي، كما قال إنه بعدها سيضربون "فاشِنك" وهو بارود يحدث أضواء ملونة تسر البسطاء. هرولوا مسرعين غربا نحو كتلة في ظلام دامس، حيث التقى الجد مع الأقارب والصحب وتسامروا، سألهم عما جرى بعد غزوتهم على خزائن الباشا، فبينوا له أن الرجل استشاط غيضاً حينما ارتج الوادي بصوت التفجير، وسارع لمغادرة عرقة وترك غرضه، وتوعد الأمير سعود بن عبدالله حفيد المؤسس "محمد بن سعود" الذي رتب له الوليمة، ثم عاد إلى مقره في القري مع حشد من عساكره، فوجد النار قد أتت على كثير من خيامه وموجودات المكان. وبعد يومين امضاهما في ارسال النجابين لطلب المدد، أمر الورداني والمؤذن بشن غارتين على شرق وغرب الوادي، وبما يتوفر لديه من ذخيرة وما جلبه من بنبان، لكن الهجومين باءا بالفشل فقد تمكن قومنا من الدفاع عن كتلة، كما استطاع المجاهدون صد الهجوم على شمال البجيري، وكان كل ذلك بعون الله ثم بما توفر من مساندة من مقاتلي الإمام عبدالله "ابن سعود" وهذا ما حدا بالعديد من الناس للتحريض على القيام بغزو الباشا في معسكره، حيث يعاني جنوده من نقص حاد في الذخيرة، مما أدخل في قلوبهم الوهن والتنازع. وبين أحد الجالسين أن الإمام قد رفض الهجوم خوفاً من العواقب، ورجاء ابرام مصالحة مشرفة، حيث يحيط به بعض المقربين منهم أرانب يوصون بالسكينة والمباحثة حول الصلح مع

الباشا، وآخرون سباع يحثون على القتال رغم ضعف إمكانيات الإمام، لذا اختلطت الآراء ولم يمكن اتخاذ قرار سوى الانتظار الذي لا طائل منه. ثم بداء المدد يصل من الرياض وسدير، وبعد أيام جاءه المزيد من الوشم والقصيم والحجاز، حيث يوجد اعوان ومريدين ومنتفعين، لكن ذلك كان في حد ضيق حيث الوفرة في الشام والعراق لكنها بعيدة، أما مصر حيث الباشا الكبير محمد علي (والد إبراهيم) فلا تصلها الرسائل إلا في خمسة عشر يوما، وتزيد إذا كان بحر القلزم مضطربا. لذا ساد السكون في الدرعية منذ أواخر الشهر الماضي، واستمر الحال كذلك في رمضان، حيث لم تحدث سوى مناوشات قليلة محدودة المدى، أما ما يسمع من رمايات متقطعة فسببها خلافات بين الإنكشارية على السيئات، أو التقاتل بين الأعراب على توزيع الأسلاب والمسروقات.
هبت عليهم نسائم ليلية رطبة في قيظ نجد داخلت عليهم النعاس، وبعد صلاة الصبح أحضر الأهل سرير الجد لحمله إلى المصلى، لحضور المشهد وسماع الخطبة، وجهزوا كرسي ذو أربعة مقابض وجلس عليه أحد بنو العم الذي بترت قدمه وقطعت نصف ساقه من أسفل الركبة، وكان يتألم بشدة من الحركة حيث أنهم قد خافوا عليه من شدة النزف عند اصابته فسكبوا على العروق واللحم زيت ساخن أدى لتشوه العظام والعصب، وكان الجد على مودة غفيرة مع ابن عمه ويتألم أكثر عند مشاهدة حالته، داعيا الله أن ييسر له أمره، ويعزيه عند القنوط بأن ساقه وقدمه قد سبقاه للجنة، فلم يفقدهما في خبث بل في جهاد لجعل كلمة الله عليا. أما القريب الأخر فكان في حالة إعراض عن كل ما حوله، رغم أن اصابته غير جسيمة وعلى ذراعه الأيمن ضمادة وجبيرة، ورفض الذهاب معهم لصلاة العيد محذرا قرابته أن الترك سيهاجمونهم هناك.
نزلوا بطن الوادي واتجهوا جنوبا نحو المصلى، فصاح أحد الرفاق من أهل الدرعية أنه لا يوجد أحد، لكن لما اقتربوا وجدوا أكثر من خمسين رجل، وتأملوا أن يحضر المزيد قبل الصلاة، لكم الخطبة انتهت وانصرف القوم الذين لم يتجاوزوا صف ونصف، وقد أحد أخوياء آل مقرن أنهم قد صلوا في جامع الطريف بجوار قصر سعود، أما العلماء والفقهاء فصلوا في جامع البجيري، وكان الكثير في وجل أن يغدر بهم الباشا رداً على وليمة عرقة، لكن شيئا لم يحدث وعاد الجد مع أهله إلى منزلهم. شاهد الجد من بعد البناء الخوص الذي أمرهم باقامته ليكون مطبخ، ثم ساندوه ليدخل ويشاهد موضع التنور على الحوائط الحجرية، ومكان اعداد القهوة ومحل اشعال الحطب للطبخ في الخارج، فقال لم يبقى سوى أن تستدعوا "حصيصة" لتجرش وتقرص، ثم توجه الجميع في سرور مصطنع لتناول وليمة ضحى العيد، أما القلوب فمليئة بالقلق مما تحمله الأيام القادمة، بعد أن وصلت بعض الإمدادات للترك. في النصف الثاني من رمضان وصلت من العراق كميات من الذخيرة والطعام، معظمها من شمر والمنتفق التي يوالي أكثرها الباشا، أما الروافض في الكوفة والعمارة فقد امتنعوا عن المشاركة في ذلك، لأنهم مازالوا يتألمون مما فعله فيهم "أبو شوارب" قبل عشر سنوات، وهم يبغضون الروم منذ زمن الصفوي قبل ثلاثة قرون، كما وصلت قوافل حاشدة من الشام أرسلها بعض باديتها من عنزة والظفير وجبور قحطان. لكن الإشكال كان مع أهل

الزبير، الذين سارعوا لشراء كميات من التمن والحب والتنباك، وأهدوا بعضه للباشا الباقي بثمن وذلك خلاف بقية الناس الذين يتقاضون أسعار مضاعفة لما يعلمون من حاجته، وقد كان وجهاء الزبير من "آل وطبان" متزعمين لذلك، ظناً منهم أن ذلك سيجعل لهم يد عند الترك ليعودوا للدرعية! وكان ذلك تصرف خائب ضد بنو عمهم "آل مقرن" وكان الأحرى بهم عدم الوقوف ضد عشيرتهم مع الغرباء، بغض النظر عن إجلائهم من الدرعية لقتل أحد قرابتهم، ولو تصرفوا بحكمة لكان في ذلك مسح لأثر ما قاموا به سابقا، وبخاصة أن الوطبان والمقرن من ذرية "مرخان بن إبراهيم" لكن السيئات تبقى، فبعد ذلك فقدوا شِيّختهم في الزبير للخدم.

رغم كل ذلك المدد إلا أن مشاوري الباشا لم يزينوا له شن هجوم كبير، بل ركن إلى تشديد الحصار على البلدة، لذا نقصت المؤونة والذخيرة لدى قوات الإمام، وارتفعت أسعارها كثيراً فلا يكاد يوجد شيء إلا ما يبيعه عليهم عساكر "العثمانية" بغلاء فاحش، مما أدى إلى قلة المال لدى الإمام عبدالله، حيث انقطعت وارداته من زكاة المناطق المجاورة، وأرسل يطلب قروضاً من أهل اليمامة وسدير، صادر بعضها جنود الحصار. أما أهل الحريق فقد كانوا أوفر حظا من غيرهم، فالدرب من نساح إلى ديراب ثم سفوح شرق طويق وعر، لكن البغال والحمير المدربة تجتازه بكلفة حاملة طعام وذخيرة ودراهم، وأكثر ما يؤذيهم هو الوقوع تحت بصر الأعراب الذين يصادرون ما معهم، أما العساكر فيكتفون بأخذ الخمس، لذا يعمدون للسير ليلا ويتفرقون في النهار حتى يتجنبوا المخاطر، لذا كانت تصل لهم كميات قليلة لكنها كافية لدفع غائلة الجوع عنهم، وهو ما انتشر في الدرعية ودفع المزيد لمغادرتها، عند معارفهم في بلدات أخرى وترك متاعهم في منازلهم، حتى لا يصادرها المحاصرون، مما أدى إلى تفشي السطو على المنازل وسلب ما هو ثمين. حينها تحدث البعض مع الجد حول وجوب مغادرته المكان، حيث أمر الباشا بالسماح برحيل من يرغب، شريطة ألا يصحب معه مال أو أثاث، وربما يتغير الأمر لاحقا فيغدو الخروج صعب، لكنه رفض طلبهم قائلا إنهم سيزيلون جبيرته بعد جمعتين، وآنذاك يعود مجاهدا ضد الفئة الباغية عليهم. بعد عشرة أيام ادعى البعض أن قافلة ضخمة من نحو ألف بعير، وصلت طليعتها للحيسية والبقية في القصيم، والمزيد في ينبع حيث السفن تتوالى من مصر، محملة بالطعام والأسلحة الفتاكة متوجهة لتدمير الدرعية، وبعض رؤساء العشائر يتقاضون أجور عالية، لتوفير الدواب والحماية لتلك القوافل، وفي استراحة الليل تسرق بعض الأحمال ثم يعاد بيعها للترك، والإمام عند عياله وحريمه ينتظر المجهول أو الحتمي. لما جاء المجبر لإزالة الخشب واللفائف من على رجل الجد، أخذ يتلمس مكان الكسر ويسأل عما يؤلمه، ثم شاهد مسيرته بالعكازين فقرر عدم إزالة الجبيرة، وأن الأسلم التريث جمعة أخرى، وأوصاه بتناول المزيد من رطب نخيل الدرعية، وشرب كثير من الحليب واللبن وأكل اللحم ليتسارع التئام الإصابة. لاحظ الجد حركة في وسط الوادي جهة القري حيث معسكر الباشا، وبدا أن عماله سيشيدون له مستقر جديد، يقع جنوب شرق منزله عند

أبراج كتلة، وأسفل مرتفع سمحان (البجيري) في اليوم التالي أنبأه أحد الأقارب أن المؤذن يجر مدافعه جنوباً باتجاه هضبة الطريف، ثم في المساء جاءهم رجل من سدير قائلا أن أحد قادة العساكر، قد جلبت له كميات وافرة من قطران السهباء في قلل من جلد، ويخشون أن يستخدمها لحرق المساكن والبشر في شمال سفح البجيري، فهو رجل خبيث من مماليك الترك يقال له برديس لا يخاف الله ولا يستحي من الناس، ويبغض أهل الإسلام والتوحيد. تم فك جبيرة الجد لكنه لما وقف على يسراه متكئ على عصا، شعر بوهن شديد وكاد يسقط أرضا، لكن المداوي شرح أن ذاك ليس من العظم الذي التأم كسره، لكنه من اللحم والعصب والبشرة (عضلات) فدرب اثنان من الخدم لعمل دلك ومروخ بالدُهن والأصابع للساق والفخذ، وأن يباشر الوقوف والسير على مهل حتى تزول آثار التعب، حيث أمضى شهرين لم يقف على رجله. وفي اليوم الثالث شعر بقدرته عل المشي بدون عكاز، مع ألم متوسط في الركبة وأصابع القدم، وتحسس عند الحركة في أعلى الورك، ثم حاول صعود الدرج إلى أعلى البرج فوجده مؤلما. على حين غرة في ضحى يوم شديد الحرارة بعد بداية برج الميزان، ثارت رماية المدافع على ضفتي الوادي، حيث شاهدوا على الشاطئ المقابل للوادي مدافع الورداني تقذف الحمم، وكانت أشد مما عهدوه في السابق، وربما لأن الباشا في مصر أرسل لولده ذخيرة محسنة وحديثة، حيث تسقط القذيفة على المبنى فتهدم بعض سقفه، وتستقر في باحته محدثة أضرار أخرى. أما البرديسي فقد أخذ يقذف بيوت المسلمين بلفافات من الصوف، مشبعة بالقطران الحار تضرم النيران في المساكن وتحرق الأطفال والنساء، لذا شبت حرائق في عدة أماكن شمال الظهرة، تؤدي أيضا لطيران العصافير واليمام بعد أن التقطت شيء من اللهب، فتهوي سريعا في منزل مجاور فتشتعل النيران فيه، وكان البسطاء في تلك المنطقة يخزنون جريد النخل والحطب صيفا على أسطح منازلهم. أما على ضفة الجد فقد شن ابن المؤذن هجوما قويا بمئات من عساكره، مع رماية شديدة من مدافعه القوية التي وصلت حديثاً، فتوجه العديد من المجاهدين لأعلى البرج، لقنص جنود البغاة قبل أن يقتربوا منهم، أما الجد فبقي مع البعض في الأسفل حيث توجد مزاغيل تخرج منها فوهات بنادقهم، لكن الرؤية منها غير واضحة، ومع هذا تمكنوا من إصابة عدد من عسكر الترك وصدهم عن الوصول للحائط الغربي، حيث يزمعون إدخال صناديق الغام في حفر غير عميقة ثم يسحبون الفتيل الطويل، وعندما يشعلونه ينفجر اللغم ويقوض السور. أما فرقة الباشا في بطن الوادي أسفل "عمران" فقد بدأت تقصف قصور الأمراء، لكن أكثرها كان أعلى رابية الطريف، مما جعل أكثر المقذوفات طاشت بعيدا، بل إن بعضها ارتد نحو العدو نظراً لتوجيه فوهات المدافع نحو الأعلى كثيراً، لكنها أثرت على خواطر القاطنين هناك، بخاصة كبار السن والنساء والصغار، مما دفع الإمام لمغادرة الطريف متوجها إلى الظهرة والبجيري، لترتيب هجوم مضاد يدحر العدو ليتقهقر عن موقعه المتقدم في قلب الدرعية. في الهزيع الأول من الليل جاء رجل من جهة غبيرا، داعيا القوم ليصحبوه لنقل ثلاثة مدافع نحو أسفل الوادي، حيث قرر الأمير سعد بن عبدالله (ابن الإمام) التوجه لموقع هناك بين

قليقل وكتلة، وحفر مكامن للمجاهدين وسواتر للرماة، على أن يتم ذلك قبل طلوع النهار وأن يحضر ثلث رجال كل برج، ويبقى الآخرون للدفاع عن مقرهم واشغال المؤذن وعساكره عن النزول للوادي ومهاجمتهم من الخلف. كان الجد مع الباقون في البرج لصعوبة مشيه، ولما بداء سعد يرمي تجاه الباشا توجه المؤذن بأكثر من نصف قواته نحو غبيراء، مما أتاح للجد وصحبه في الأبراج المجاورة، ان يتعاملوا بسهولة مع من تبقى من جنود العدو حولهم، ثم قرر البعض الخروج من الحائط واكتساح البغاة بعد أن قل عددهم ولاذ كثير منهم بالفرار، توجه الجد للخارج مع أحد عماله وأخذ يتطلع نحو بطن الوادي بناظوره، وحزن لمشاهدة أن سعد معه مدفع كبير واثنان صغار لا تبلغ رميتهم قرب الباشا، وبعد هنيهة رأى أن العدو قد أدار عدد من مدافعه نحو الشمال، ثم أخذ يقصف مكامن وسواتر رجال الأمير سعد التي تقع في مداه، ثم تبع ذلك كتيبة من عساكر المؤذن تهاجمه من الخلف، فوقع اضطراب شديد بينهم وأخذ الجد يدعو الله أن يسلم أهل التوحيد، الذين بادروا لصد المهاجمين برصاص بارودهم، حيث توقفت رماية مدافع الباشا لما رأوا بيرق المؤذن دخل الوادي. استمرت المنازلة حتى الزوال وقد غدا الطرفان في حالة إنهاك من شدة الالتحام، لكن الباشا آنذاك سارع بإيقاف قصفه للطريف، وأرسل حشد من جنوده شمالا نحو مكمن سعد والرفاق، فالتبس الأمر على المدافعين وفي لحظة عاجلة شاهدهم الجد يتجهون شمال شرق، ثم دخلوا شعيب قلقل فلم يعد يراهم، لذا رجع وصحبه إلى داخل الأبراج غرباً، يتربصون عودة المؤذن للهجوم عليهم. وعند العصر تبين أن القوم قد كفوا أذاهم وركنوا للسكون، أو أنهم يعدون لهجوم آخر لاحقا بعد أن رأوا شدة العزيمة في الدفاع، وفي الليل بلغهم أن الأمير سعد لم يذهب نحو والده الإمام، بل دخل غصيبة وتحصن فيها عاقداً العزم على مكافحة العدو.

في اليوم التالي سمعوا أصوات رماية شديدة على السفح الشرقي، وبدا أن الورداني وضباطه قد عقدوا العزم على دخول سمحان والبجيري، نظرا لسهولة سير الدواب وجر العتاد في تلك المنطقة المرتفعة والمنبسطة، ولوحظت سحب من الدخان فوق المنطقة، ليست من قذائف المدافع بل من احتراق منازل الأهالي الشمالية. إلا أن قوات الباشا في بطن الوادي بين الطريف والبجيري ساكنة، وعلى نفس المنوال كان السكون عام في عساكر إبن رافع الأذان، غرب السور والأبراج التي ترصد فيها الجد وجماعته. ولم يدركوا سبب ذلك إلا عند العشية، لما جاءهم رجال من أسفل الوادي بأن الإمام ما زال في الظهرة، ولم يعد إلى قصور الطريف حيث النساء والأطفال، وربما أن الباشا قد حسب أن الأسلم تكثيف الهجوم على السهل العلوي، قبل البدء في قصف القصور على التل الشاهق. في الليل أصخى الجد سمعه لما قاله أحدهم، بأن هناك أصوات خوار ثيران وصهيل خيل وضرب المعاول والفؤوس، كانت تأتي من الجهة الجنوبية الغربية للبرج، وكان القمر يقارب المحاق ولا يبزغ ضوئه الضعيف إلا قبل السحر. في الليلة التالية أرسلوا رفاق حادي النظر صوب تلك الجهة، فعادوا بالقول إن الروم يمهدون

السبل، ويجرون مدافعهم وأثقالهم صوب "صفار" وربما يقصدون الوصول قرب غرب الطريف، لذا سارعوا لإخبار الأمير، الذي قال إنهم يعلمون ذلك حيث أرشدهم أحد الخونة يقال له "غازي" إلى درب "أم قديد" الذي يمكن الصعود منه إلى أعلى طويق، من جنوب ضرما بسبب ازدحام مطلع الحيسية بالقوافل، ثم يزمعون الانحدار شرقا حتى يصلوا للطريف مشاة، وعندئذ تأتيهم ركائبهم وعتادهم المحتشد عند المؤذن في غبيرا. لما بلغهم ذلك جالت الوساوس في قلوب بعض أهل الحريق، بتأكيد ما شاع من أقوال بإن الإمام يزمع الفرار، ويتجه شرقاً نحو تلال العرمة ومنها إلى جنوب القطيف، حيث توجد قوات موالية له بقيادة ابن رحمة. لكن الجد رفض قبول تلك الأقاويل، ونوه بما يقوم به ابن الإمام من جهد لترتيب الدفاع عن غصيبة، وهو ما يزال شاب لم يبلغ العشرين، ولن يكون أبوه أقل منه عملا ونية، وجادله بعض الصحب بأن الباشا أجل الهجوم على غصيبة لانشغاله بأسفل الدرعية، وقال آخر أن الترك قد أعجبوا بشجاعة "سعد" وشهامته، حينما شاهد الهجوم على مساكن أهله وفيها الضعاف، لذا قام بتلك العملية بدون غدر أو مراوغة، لذا فهو يستحق الاحترام وأوصوا بتركه كامنا في غصيبة فقد يلزمهم مستقبلا. عندما جاء الأمير عبدالرحمن لتفقد أحوالهم التقى معه الجد والبقية، فسأله أحدهم عما اذا كان أخوه الإمام يزمع التوجه شرقا؟ لكنه رد عليه ساخطاً بأن يتركوا الأقاويل الكاذبة، وما يشيعه العدو وأعوانه بقصد تثبيط الهمم، وأن لا يهنوا ولا يحزنوا وهم الأعلون ما داموا مؤمنين، يقاتلون في سبيل اللهمخلصين عملهم له وحده، ثم أضاف بالقول أن الإمام قد عاد من الظهرة إلى الطريف، وقد رتب غمدادات تصل قريبا من الحجاز والأحساء. وبعدها جلسوا يتداولون الأمر وتمنى الجد لو أنهم حثوه على ارسال كتيبة للقدية حتى تصد مشاة الروم الذين يزمعون شن هجمة قوية من جنوب الدرعية، بالتعاون مع فرقة أمير الرياض (العايذي) المتربصة في عرقة، بدلا من الأسئلة التي لا داع لها. استمر قصف العدو على المجاهدين في السفح الشرقي، ودبر البعض أن ينتقلوا ليلا إلى هناك لمساندتهم، بدلا من الكمون في أبراجهم ينتظرون قدوم تعزيزات للمؤذن، تمكنه من ضرب الطريف غربا حيث الأرض منبسطة، وهاهو طيلة ليله ونهاره ينقل عتاده ومؤونته من جنوب غبيرا إلى شمال صفار، غير عابئ بالقوات في كتلة، لكن القادة نصحوهم بعدم جدوى ذلك، لأنهم هناك يعانون نقص الطعام والذخيرة ولديهم كثرة من الرجال. وقع على الجد نباء مثل الصاعقة، حيث قال أحد معاوني الأمير أن أربعة من وزراء الإمام قد انشقوا عليه، حيث لما عاد للطريف تفقد خزائنه فوجدها خاوية، وأساء الظن بهم وتوعدهم أن يبطش بهم أذا لم يعيدوا ما ذهب! وكان أهمهم خازن بيت المال الذي أقسم بالعتاق والطلاق أنه لم تخرج بيزة واحدة إلا بأمر مسجل وعرض أوراقه فلم يبالي بانظر فيها، أما خزائن الطعام فقد كانت شبه خاوية، بعد أن كانت أحواضها الواسعة والعميقة مليئة بالحبوب من التمن والرز الفاخر والحنطة وأنواع من الذرة والشعير، وحتى جصص التمر لم يبقى فيها إلا نزر يسير، وقال الرجل لسيده أنه لم يخرج شيء من عنده إلا بأمر من قرابته ونساء بيته. أما مربط خيله فقد ذهبت منه أفراس أصيلة ثمينة، يعرفها

الإمام بأسمائها وأشكالها ولم تشارك في المنازلة فأين ذهبت؟ ومعاونه لخزائن السلاح والذخيرة اتهم باختلاس شيء كثير منها، وعليه اعادتها أو ستحل عليه أقصى العقوبات، وفحص غرف الثياب والدروع فوجدها ناقصة أيضا، ولما قال له أمينها إن الحرب مستعرة منذ شهور وخرج كثير مما فيها، نظر إليه بقسوة ولم يحادثه. ذهب اثنان من أولئك إلى إبراهيم باشا على أن يحفظهم من بطش الإمام، ويكونوا من أعوانه ليدخل الطريف فاتحا، وآخر فر لمعكال عند العايذي، وزميله اتجه إلى سدير عند أهله، أما الخامس فسلم نفسه لما يراه الإمام.

لما رأوا ولادة الهلال لشهر "القعود" عن القتال، تأمل البعض أن تجري هدنة تقود لمصالحة كريمة تحقن الدماء، لكن بلغهم أن فقهاء الباشا قالوا إن الشهر الحرام بالشهر الحرام، ومن قتلوا الحجاج في أرض الحرم في الشهر الحرام وهم بلباس الإحرام، ليس لهم حرمة ولا عهد عند ولي الأمر، بخاصة أنهم يأخذون على المسلمين أنهم يشمون دخان التبغ العجمي، بينما هم يشمون دخان "العود الهندي" الغالي الثمن والكريه. كان بعض أولئك الفقهاء يحيطون بالقادة، ويفتون لهم بما يريدونه ويبحثون عن تأويلات غير صحيحة لتأكيد قولهم، الذي يتبدل حسب هوى الزعيم الذي يملأ جيوبهم بالمال الذي يعتذرون أنهم لم يشرطوه، ناسين سورة الشعراء وما ورد فيها عن تنزه أهل القول الصادق (الأنبياء) عن المال، بينما يلهث وراءه أهل القصائد المنمقة الذين يتبعهم الغاوون، وتراهم في كل وادي يهيمون، يبحثون عن زعيم أو تاجر أو صراف يحللون له ما حرم الله، لقاء حفنة دراهم أو حتى حبل يطوقون به في جهنم (صححه ابن حنبل) فعليهم من الله ما يستحقون بعد أن جعلوا الدين مطية لنيل الدينار. في الصباح الباكر اشتدت الرماية على شمالي سمحان وشرق غصيبة، وشبت المزيد من النيران في المنازل المبنية بالطين والخشب، ثم جاءهم أمر بالخروج من السور غربا، ومهاجمة حشود غفيرة من عساكر الترك، كانت تتحرك جنوبا غير آبهة بأن يتصدى لها المهاجمون من الأبراج، كانت رجل الجد قد بدأت تتعافي مع بقاء شيء من الألم في الركبة والورك، لذا أبى عليه بنو عمه الخروج معهم. قام العمال بوضع فراش سميك أمام فتحات (مزاغير) في البرج، وجهزوا بجوارها الذخيرة والزاد، وبينما الجد منبطح وقد أخرج فوهة بندقه، لاحظ اقتراب بعض عساكر العدو من السور، في تحرك بدا أن القصد منه الالتفاف على المجاهدين، لذا سارع ومن بجواره من الرفاق لرمايتهم، ثم تبعتهم رماية كثيفة من المجاهدين الذين كمنوا في أعلى البرج، ومدى الرؤية لديهم أوسع فانزلوا بالبغاة خسائر فادحة الزمتهم بالفرار، أمر الجد أحد عماله بسرعة الخروج نحو أحد الروم الملقي أرضا، والإجهاز عليه وسلب ما معه وبخاصة بندقية حديثة ذات فوهة طويلة، من النوع ذو المدى البعيد وشعلة بالزناد وليست بالفتيل الخارجي. واستمرت المنازلات في الأيام التالية، ثم أدرك الجد خطورة الحال لما شاهد رماية المدافع على الطريف من الجهة الغربية، ورغم قلة عدد فرسان العدو المارين قرب البرج، إلا أنه بعد أن تمرس في الرماية بالبندقية الحديثة أصبح قادراً على

التصويب نحوهم بدقة أكثر، ثم تبين له أن معظم العسكر قد زحفوا جنوبا، ولا يمر جوارهم سوى دواب تجر أو تحمل المستلزمات من غبيرا نحو صفار، كما أخذوا درب غرب السور لتجنب اصابتهم بطلقات المجاهدين النارية، بينما قذائف الباشا زادت شدتها على البجيري وسمحان، بعد أن تبين عدم جدوى اطلاقها على قصور الطريف في أعلى التل، لكثرة طيشها أو ارتدادها عليهم. ذات ضحى ظن خيرا حينما ساد الصمت بطن الوادي وأعلاه، وتوقف القصف المدفعي الذي فتك بالأهالي، بخاصة المستضعفين من العجزة والشيوخ والنساء والأطفال، لكن أحد الرفاق جاءه عند الظهر من عند الأمير بنبآء جلل، قائلا إن أعيان الضفة الأخرى، ومن بينهم عم الإمام وأحد اخوته وأحد أبناء الشيخ محمد، قد ذهبوا للباشا وأعلنوا تسليمهم البلدة له صلحاً، يحسبون أنه يعرف الحكم الشرعي أن الصلح يؤدي "للمناصفة" لكن الرجل لا يفهم ما يعنيه شرع الله، بل زاد في غيه بطلب أن يأتي إليه الإمام عبدالله صاغراً. ولما توسل لديه البعض قبل أن يستسلموا لنظر والده الباشا الكبير في مصر، واشترط أن يخلوا له السبيل ليجر مدافعه من السهل العلوي نحو الظهرة، وهي تل متوسط يشرف على بطن الوادي المعوج هناك بشدة وفي مستوى يعادل الطريف. اقترح الجد أن يباشروا في بناء سواتر حجرية غرب السور في ظلمة الليل، ويكمنوا فيها عند الصباح ليصدوا حركة العدو بين مقرهم عند غبيرا وجذع المليبيد، لكن الغالبية لم يستحسنوا ذلك وقد قضي الأمر وأعلن آل مقرن الاستسلام، وقام بعض المكافحين بالعمل ليلا في تشييد اثنان من السواتر بارتفاع نصف قامة فقط، وعند الفجر غادر الجد مع بعض الرفاق وجلسوا فيها ينتظرون مرور الترك ليجهزوا عليهم، لكن أحد لم يأتي حتى الظهر وبدا أن المؤذن قد نقل مقره جنوباً، لذا عادوا إلى منزلهم داخل الحائط. حيث استمر دوي القصف على الطريف، من مدفعية الترك التي تمركزت في أجزاء من البجيري والظهرة وسمحان، وكان لا يتاح لهم مشاهدة المنطقة التي تحجبها عنهم تلال ومزارع نخل جهة الجنوب، لكن الرفاق في أعلى البرج قالوا لهم أنهم شاهدوا بعض البنايات تتهدم وأخرى تشب فيها النيران، فسألوا خفي الألطاف أن ينجي المسلمين هناك من الأذى، وقال البعض أن زول الرؤية وسط الدخان، يشير أن بعض عساكر العدو ربما دخلوا غرب الطريف عند الأصيل.

في اليوم التالي ذهب الجد وقرابة ورفاق إلى مقر الأمير عبد الرحمن (أخ الإمام) فوجدوا عنده الأمير تركي بن عبدالله في اضطراب، وذلك لاستشراف حقيقة الوضع في الطريف بعد استسلام البجيري، وكيفية مشاركتهم في صد العدوان على الإمام وأهله، وأيسر الطرق للوصول إلى هناك. لكن الأمير تركي تألم بحرقة قائلا لقد وقعت الواقعة، وقد سلم الرجل نفسه للباشا إبراهيم ليرسله عند والده، الباشا الكبير محمد علي القولي الألباني المستولي على حكم مصر بالعصا على ظهور أهلها، بعد أن كان مجرد بائع تنباك حقير، ولا يعلم أحد ما سيكون مصيره هناك. إلا أن الأمير عبد الرحمن قال إن أخاه قد اشترط، أن يعطى خطاب أمان لكافة أهل الدرعية، على دمائهم وأموالهم

وأعراضهم لا تمس، وان يكون ذلك في رسالة مفتوحة يحملها الإمام بيده للقاهرة. وأنه أعطاه بالفعل رسالة تبدء بالثناء على عزيز مصر، ثم يقول أنه بعد أن يعفر وجهه بالتراب تحت قدميه، ثم يقبل ركبتيه ويديه فإنه يتوسل لمقامه العالي أن يقبل عذر عبدالله بن سعود، الذي لم يشارك أبيه في جرائمه ضد الحجاج، بل ينصحه لتجنب ذلك، كما أفاد الحملة بأن حقن الدماء ورضي بتسليم البلدة بعد مطاولة، وانصاع له كل من فيها، لذا فهو يرجو أن يشمله بالعفو الكريم ويحسن معاملته هو ومن معه من قرابته وأعوانه. فقال تركي (ابن عم والد عبدالرحمن) وهو في منزلة العم، وهل يكون للباشوات عهد أو ذمة عند الله أو المؤمنين، فها هو قد وضع جائزة كبيرة لمن يأتيه برأس أخي سعود، متهما إياه بتدبير حادثة عرقة والمخازن، ثم التفت نحوهم محذراً من البقاء ساعة واحدة في جوار وادي حنيفة، فإن الترك يزمعون تسخير الأهالي لهدم أسوار وقلاع الدرعية، فعليكم بسرعة الخروج إلى دياركم في حفظ الله ودعوا عنكم كل شيء آخر. قال الجد له وماذا بشأنك أنت وأخوك، فإن لدينا في حريق نعام تلال وجبال وعرة، لا يعرف مسالكها إلا نحن، وتكونوا ضيوفنا نصد العدو عنكم كما نكون مع أهلنا، وذلك حتى تسكن الأمور ويأتي فرج الله، ولما لاحظ أن الأمير عبد الرحمن لم يجز له هذا الطرح، فقال له الجد وأنتم طال عمرك مع مقام عمكم، إلا إن كلاهما اعتذر حيث لديهم تدبير آخر! هرول آل خثلان ورفاقهم من بعض أهل الحريق، للعمل بنصيحة تركي بن عبدالله وسرعة المغادرة لئلا يقعوا في الأسر. كان الجد يراقب العمال يرتبون الزاد والمتاع، وهو في ضيق وكدر شديدين لعودته لأهله في هذه الحال، فحاول أحد بنو عمه أن يسري عنه، فقال ألا تظن الباشا سيعطي كتاب الأمان للإمام، ثم يرسل أحد النجابين مهرولا بكتاب آخر لأبيه، ليصل إليه قبل باقي الركاب، وينبئه أنه سيجد حيلة أو عذر ليبطش بأهل الدرعية، ويمكن لأبيه أن يفعل نفس الشيء مع عبدالله بن سعود، الذي يحظى بمحبة كثير من الناس في قلب جزيرة العرب، فصرف الجد خاطره عما يقول لشدة ما يشعر به من الغم. لما بدا أن ضف القشاش سيستغرق وقتا طويلا، قر بعض القرابة أن يبادروا بالمغادرة قبل المغرب ومعهم بعض المتاع ونصف العمال، ويبقى الآخرون لاستكمال اللازم واللحاق بهم صباح الغد، رفض اثنان الذهاب إلا بعد جمع كامل ما يخصهم، أما الجد فرأى أن يرافق الغالبية متوجهين جنوباً في درب ملتوي لتفادي خيالة الأعراب المتعاونين مع العثمانية.

بعد الساعة الحادية عشر (آخر النهار بالتوقيت الغروبي القديم) في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر في السنة الثالثة والثلاثين من القرن الثالث عشر، التفت الجد علي وهم في أعلى ربوة وشاهد بعض الدخان يتصاعد من قصر سلوى، فزاده ذلك هم على هم وتوقف برهة لا يكاد يطيق استنشاق الهواء، وتمنى لو استشهد في الدفاع عن الحوزة ولا يعود كسير الخاطر والبدن، لكن الله غالب على أمره رغم أن أكثر الناس لا يعلمون، فجاءه اثنان من الرفاق يحثونه للسير مع الجماعة، وواساه أحدهم قائلا أنه سبحانه اذا أراد أن يهلك قرية أمر مترفيها، فحق عليها القول فدُمرت تدميرا، وأولاد

أبو شوارب انشقوا على أبيهم زمن عنفوانه، ثم لم يدبروا سياسة القوم بعد موته. وقال الثاني، بل الأسلم أن تقول مثل الشاعر:

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ

فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ

هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ

مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ

فقال لهم آخر: -----

الحزن يقلق والتجمل يردع --------- والدمع بينهما عصي طيع

أين الذي الهرمان من بنيانه --------- ما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ----- ثم يدركها الفناء فتتبع

أما الجد فقد زاد كدر خاطره، ورأى أن الأسلم سرعة مغادرة المكان حيث أقبل الليل، وقد يكون هناك من يتربص بهم، وبعد الغسق شاهدوا على بعد خمسة من الخيالة بسلاح حديث، لم يمكن الاختباء عن أنظارهم فقرروا التفرق وذهب لهم اثنان من الخبرة، حيث تقاولوا معهم للحظات ثم عادوا، حيث أفادوهم أن من بين الرجال سبيعي من الذين قلبوا ولائهم نحو الباشا، وقد نصحهم بعدم التوجه جنوبا نحو ديراب، حيث يوجد بعض الأشرار يشطرون الطريق وقد يؤذونهم، لذا أوصاهم بالتحول غربا نحو أم قديد، حث تمهد الدرب عند مرور عساكر الروم منه. لذا انطلقوا مسرعين على ضوء القمر الباهت ينشدون سلامة الله، ثم انقسموا فرقتين الأولى انحدرت في الظلمة، والأخرى تأخرت منزوية في الأعلى حتى الصباح.

حينما وصلوا بلدتهم استقبلهم الأهل والصحب بالبشر، مع سؤال البعض التقليدي "ايش شفتوا وايش سويتوا وايش جبتوا" وترجمتها "أي شيء شاهدتم وفعلتم وأحضرتم" كان على كتف الجد بندقيته العتيدة وعلى الآخر واحدة غنمها من العدو، مع محاولة التخلص من العصا قدر الإمكان، وقد أجابهم أنهم شاهدوا "الغرابيل" أي المتاعب، وسوينا الذي قدرنا الله عليه، وأحضرنا "ستر الله" وهذا ما لدينا. بعد طقوس الكلام والطعام باشر النظر في شئون بيته وعمله، حيث الوقت خريف وقد نضجت أكثر ثمار النخل وغدت تمراً، ولاحظ سوء خدمتها لضعف الارشاد وغياب بعض العمال، لذا اجتهد في استدراك الأمر والعمل على تلافي المزيد من الخسارة، أما الدواب فقد قامت النساء بعمل مشكور في رعايتها، ومع هذا فقد كان يكثر من توبيخ الجميع لتقصيرهم في العمل خلال غيابه تلك الشهور الطوال، وانه لوكان معهم ما غدت الأمور هكذا! جلسة

احتساء القهوة والمحادثة خفيفة مع البسطاء والصبية، لكنها عويصة مع حكماء الأسرة والبلدة، وأخذ يتردد سؤال هامشي في ظاهره لكنه عميق المعنى "ايش الدبرة هالحين" أي ثم ماذا بعد؟ قال البعض إننا الحريق قرية صغيرة ينتشر بين أهلها الجهل والفقر والحسد والبغضاء، فليس لنا إلا الانشغال بأمور ديننا وأنفسنا وأهلنا ومالنا، وإذا طلب منا الولاة النفرة فكل يقوم بما يستطيع. وقال آخرون إن البلاد لم يعد لها والي وقد سقط حكام الدرعية في يد الترك، وكل بلدة عليها أن تدبر شئونها بنفسها، وربما نرى قريبا عودة المزارات البدعية، أو شعراء الفجور يروجون للفواحش بين المسلمين. ثم وجه أحدهم بوجوب النظر للآخرين وماذا صنعوا، حيث جاء شريف جديد في مكة وهو صنيعة العثمانيين، ويطيع كل ما تراه الأستانة بدون أي مخالفة، وفي جدة ضابط تركي يبلغه بما يريده خليفة المسلمين السلطان محمود. وفي المدينة رضي أبناء وأقارب البطل الهمام الشهيد "مضيان" الحربي أن يكونوا في عمالة الباشا ويهتموا بتدبير خصوصياتهم، وان يتركوا الدبرة لمن يقدر على القيام بعبئها. لكن آخر قال إن أهل عسير لم يقبلوا الهوان، وبعد استشهاد طامي على يد الروم، ها هم الآن يحاربون البغاة تحت لواء سعيد بن مسلط، مما اضطر باشا مصر أن يوجه حشود من العساكر إلى هناك، ونحن نستطيع أن نقوم بمثل ذلك فنقض مضاجع الترك الذين استولوا على الدرعية، ونقطع قوافلهم بين ينبع والعارض، حتى يعلموا أن بقائهم في ديارنا ليس مقبولا لدينا ثم يرحلوا، وبلغنا أن أحد قادتهم قال إن نجد واسعة قاحلة، فاذا أرسلنا عساكر غفيرة جاعوا، وإذا ارسلنا قليل ضاعوا. الأكثرية لم يستحسنوا ذلك حيث بلاد عسير جبال وعرة عسيرة يمكن للمجاهدين الاختباء فيها، وليست مثل تلال نجد "الدرعاء" المكشوفة، ثم استقر الرأي على وجوب حضور قيادة فعالة، مادام الطاغية إبراهيم باشا قد نكل بكافة آل مقرن، إما قتلا أو نفياً لسجون مصر وتركيا، وكذلك فعل مع ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لذا فيلزم البحث عن قيادة تستلم راية مقاومة الغزاة، فقال أحدهم مازحا ولماذا لا نقوم نحن بذلك، فرد آخر إن سبيع موطنها أرض هوازن في الحجاز، وكذلك مطير من غطفان الحجاز، وعنزة وتغلب موطنها العراق وكلنا قلة، فقال زميل لهم إن جمهرة نجد في عتيبة وتميم وقحطان، فيقع عليهم تولي محاربة العدو واقترح أن نحادثهم في ذلك، وبخاصة العتبان من بني صعصعة، فغضب آخر وقال إنهم موالون للترك، وربما ربطوكم وسلموكم لهم ليقتلوكم، لذا اقترح التوجه نحو العناقر من تميم أو العفيصان القحاطين، ففيهم رجال أخيار وشجعان لا يرضخون للغرباء. ثم قال أحدهم أن لديه احدوثة (كلمة) تتلخص في أن أمر الأمة لن يستقيم حاضره إلا بما استقام به ماضيه، ولقد كنا قبل سبعين سنة في حالة تشتت وخيبة لا تجهلونها، ولما قام محمد بن سعود بتأسيس حكم جديد في الدرعية، يستند على الكتاب والسنة انضوينا جميعاً تحت لوائه، وعند وفاته كانت امارته تتجاوز وادي حنيفة لتشمل أجزاء واسعة من وسط جزيرة العرب، ثم تولى ابنه ليوسعها لتشمل أكثر الجزيرة، أما حفيده فقد امتد حكمه ليحتوي أجزاء من العراق والشام، مما أثار حقد الموتورين على العرب، وجعلهم يرسلون كل ما في الدنيا من قوى الخراب والتدمير للقضاء على

الإمارة التي رفضت الخنوع لغطرستهم، والآن أيها الإخوة ألا ترون إن علينا العمل لعودة تلك الأرومة الطيبة لقيادة بلادنا؟ أجابوه أن أكثر ذرية محمد بن سعود قتلوا أو سجنوا، والروم مجتهدون في البحث عمن بقي منهم ليستأصلوه، لكن آخر رد بأن بعضهم متواري عن الأنظار، وحينما يرون الفرصة ملائمة سيظهرون وعلينا مساندتهم. قال الجد علي إن عشيرة مؤسس إمارة الدرعية الكبرى، والتي شملت جزيرة العرب وشمالها، ينقسمون إلى ثلاث عتر أولها ذرية من بقي من أولاده، وهما إبنان الأكبر عبد العزيز وبعد أن توسع نفوذ ولده سعود أصبح يطلق عليهم "آل سعود" أي إخوته وأبنائه، وولده الثاني تسمى ذريته "آل عبدالله" وبقية أبناء المؤسس انقطعوا بلا نسل، والعترة الثالثة هم ذرية إخوة الإمام محمد بن سعود وأبناء عمه ويطلق عليهم آل مقرن، ومنهم ذرية ثنيان ومشاري وعياف، وهؤلاء أكثرهم من الصالحين لكن قدراتهم محدودة لبعد قرابتهم عن المؤسس، أما العترة الأولى فكل من رأيتهم في الدرعية وهم كثر، فيهم مزايا طيبة لكن هفواتهم كثيرة، ولديهم نفوذ قوي مع اضطراب في التدبير وميل للقسوة. ثم أردف بأن العترة الثانية رغم ابعادهم عن صنع القرار وتدبير الأحوال والرجال والأموال، إلا أنهم مخلصون لأهل الديار وفيهم حماسة وشجاعة وفطنة لخدمة شرع الله، وعندما مات الإمام سعود بن عبدالعزيز، كان عمه عبدالله ما يزال نشيطا واقترح البعض أن يتولى الحكم، لتلافي هجمات الترك ومسايرة الحال معهم، لكن أبناء أبوشوارب تشبثوا بالسلطة وتصادموا مع جحافل الترك حتى آل الحال لما ترونه. تساءل جالس معهم عن ذرية عبدالله، فقال له الجد علي أنه شاهد أربعة من أبنائه العديدين وهم على درجة طيبة من الخلق والفطنة والذمة، كما تعرف على جماعة من أحفاد عبد الله الذين استشهد بعضهم في أثناء الدفاع عن عاصمة الإمارة، لذا فإني أظن أن آل عبد الله هم الأقدر على متابعة الكفاح ضد الترك، لإقناعهم بترك نجد مع تلافي التصادم معهم، بخاصة في منطقة نفوذهم على المسلمين في أرض الحرمين. وقد دعوت تركي بن عبدالله للتوجه للحريق، لتفادي بطش الباشا وأعوانه الطغاة به، لكنه تعذر بأن لديه تدبير آخر، ثم اقترح الجد على جماعته التريث حتى تنجلي الأمور. قبل أن ينفض مجلسهم قال رجل أنهم قد نسوا ذكر عنصر آخر قد يكون فيه الفرج من الله، ويخص شدة تعلق أهل نجد بأصول الإسلام التي تشبثوا بها منذ القضاء على مسيلمة الكذاب قبل اثني عشر قرنا، لذا فقد اقترح أن يجري التحالف مع رجل حربي من الفقهاء، تلتف حوله قوى الجهاد لمكافحة الغزاة، وتجعل بقائهم في نجد جحيم لا يطيقونه، ويدفعهم للتقهقر عن أرضنا هم وفواحشهم. فرد عليه أحد سكان الحريق ان خلط القيادة مع الفقه له محاذيره، وقد ورد في كتابه سبحانه أن بعض المؤمنين قبلنا قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، والملك يعني القيادة العسكرية التي إذا دحرت قرية جعلت أعزة أهلها أذلة، ولم يقولوا لنبيهم قم وتولى قيادتنا للحرب، والمصطفى في بدر وغيرها كان يستند إلى مشورة وتدبير الصحابة، لاختيار أماكن الاقامة والهجوم في المعارك، لذا نريد رجلا يقود الحرب بالشورى ولا يخرج عن رأي علماء الشرع. قال آخر أن من قبلوا الاستسلام المهين لا يسعهم أن يفرضوا علينا

قبول ذلك، ثم أقسم بالله أن الموت خير له من البقاء في الذل تحت سطوة الترك البغاة، الذين يريدون انتهاك كرامتنا واعراضنا ونهب أموالنا وسفك دمائنا، لكننا بحاجة إلى قيادة فعالة ومخلصة، تلتزم بالشرع وطرد الغزاة من أرضنا، حيث لن نقبل الخنوع لهم قطعيا، وليس هناك خير من ذرية الإمام محمد لتولي الأمر. اتفق معه البعض وعارضه قلة، حيث قال أحدهم ان الإمام ابن عبد الوهاب عاش خمسين سنة بعد اتفاق الدرعية، كان اثناءها ينزه نفسه عن المشاركة حتى في معركة واحدة، وترك ذلك لابن سعود وولده وأقاربه ورجاله، واكتفى بدوره في التوجيه للحسنى والنهي عن السيئات، وكذلك فعل أبنائه وحفدته قبل وأثناء هجوم الترك، وبعد الاستسلام للباشا لا أظن أنهم يغيرون نهجهم، لكن الجد الذي استمع كثيراً تحدث قليلا، فقال أنه يشهد على مشاركة بعض ذرية الإمام في القتال، فرد عليه أحدهم ربما أن ذلك فقط عندما انهمرت قذائف الباشا على البجيري. في أوقات لاحقة استمرت المحاورة بين الصحب، والكل متذمر من الوضع بعد سقوط الدرعية، لكن الرأي غير مستقر حول ما يمكنهم عمله لمواجهة ذلك، لذا عاد مركز تفكيرهم حول القيادة الفقهية، حينما قال أحدهم إن اجتماع اخلاص العمل لله مع الحصول على متاع الدنيا يسوق نحو المفسدة، وضرب مثلا على ذلك بالمؤذن الذي يتقاضى الأجر عليه، ولا يجعل عمله خالص لله، ثم يدعي أنه من أطول الناس أعناقا يوم القيامة، وقد تقاضى عليه المال فليس له في الآخرة شيء. اتفق معه أحد الحاضرين بأن ما رأيناه من فتاوى شيخ الإسلام الشامي العامل تحت إمرة الباشا، ويفتي له بما يهوى لقاء مبالغ كبيرة تدس في جيبه بدون أن يطلب أو يشترط، ويدعي أن تقاضي المال على ارشاد الناس للصواب أو الإفتاء جائز، مثلما يدفع مقابل الرقية بالقرآن أو تحصيل الزكاة أو إمامة المصلين، فرد عليه آخر إن ذلك الخليلي يفتي للباشا ويتقاضى المال، لذا فإن فتاواه تُلزم من يدفع له الأجرة ولا تُلزم عامة المسلمين، ولابد من تنبيه الجميع لخطورة الفتاوى من الأجراء مثله، الذين يدعون الورع وهم يستخدمون الدين مطية، يصلوا بها للرئاسة والعلو وكسب المال، أيده أحد الأقارب يالقول إن الله أخبرنا عن هؤلاء في كتابه "الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا" فعلينا البعد عن المسترزقين بأداء العمل الصالح. حمد الله أحد أفراد الجماعة لأنهم على مذهب ابن حنبل، الذي كان في قرون الخير ورفض أن يفتي للمعتصم بقبول رأي المعتزلة، بأن القرآن كلام الله المخلوق وليس المنطوق لتجنب البدعة، فأوذي بسبب ذلك وسجن لكنه رفض، لأنه لا يقبل دس المال في جيبه من الحاكم، ولما جاء الواثق تعرض للجلد حتى يفتي بما يلائم رغبة الكبراء، فتحمل ذلك في سبيل الله، ولما جاء المتوكل نجح ابن حنبل في إقناعه أن الصحابة والتابعين لم يجهلوا ان "الله خالق كل شيء" وقرأوا قوله "ذكر من ربهم محدث" وسمعوا حديثه إن "الآية جاء بها جبريل من تحت العرش" وليس من شفتيه سبحانه، وما داموا يعرفون ذلك وسكتوا "أفلا يسعك ما وسعهم من السكوت" لذا قبل بفتواه الخالصة لوجه الله. وبعد أيام أرسل له سراً صرة دنانير ذهب ليقضي بها حوائجه، فذهب له شيخ الإسلام الحقيقي يشكره على كرم إخراجه من السجن والعذاب، راجياً أن يعفيه من قبول ما هو

أثقل من ذلك، أي قبول المال على أداء عمل فيه مرضاة الله وحده، حيث قبول متاع الدنيا من أهم نواقض الإخلاص الذي هو عماد التوحيد. قال أحدهم وكيف كان ينفق على نفسه وعياله وهو يمضي وقته يعلم الناس ويرشدهم؟ فرد عليه الجد أنه كان يكري جزء من داره بدراهم قليلة، ويخرج كل بضعة أيام في آخر الليل نحو بلدة مجاورة لبغداد متخفيا، ويعمل سحابة نهاره في جمع الكلاء والحطب، أو يشتغل في مزارع الغير لقاء أجرة يشتري بها حوائج أهله، ويعف نفسه عن قبول العطايا التي تجرح الإخلاص، فأيده آخر وهو يتلو مدح الله للذين "آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون" وهل من ظلم أعظم من الشرك، حينما يقبل البعض الدراهم لقاء إرشاد الناس أو الأمر بالمعروف، وإن ادعوا أنهم يعطونها للمجاهدين أو يأكلونها أسوة بالرقية، وهم إنما يبررون الشرك لأنفسهم ومريديهم.

استمر الجدال والحوار ولم يصلوا إلى أي قرار، بل استمرت الغصة في حلوقهم والهلع في قلوبهم مما قد يحل بهم، وأخذ بعضهم يواسي نفسه بإحسان الظن بالباشا وأبيه، وأنهم سوف يعيدون الإمام عبدالله بن سعود لمنصبه في الدرعية، شريطة أن يكون مثل شريف مكة رهن إشارتهم، مع وجود قوة عثمانية كبير في الوشم لضمان خنوعه كما الحال في جدة، وذلك لقاء التزامه بمنع قطاع الطرق، وإرسال الزكاة للخليفة في إسطنبول، لكن شيء منه لم يحدث. وذات مرة قال أحدهم أنهم يشغلون أنفسهم بأمور لا جدوى منها، فإنما هم من جماعة صغيرة وقرية ضعيفة، فهل يقدرون على دحر دولة الخلافة، وهل لقوا خير كثير من أبوشوارب وأبوه وجده وولده، ألم تسفك دمائنا وتؤخذ أموالنا ونسجن وتنتهك كرامتنا خلال السبعين سنة الماضية؟ وسواء عادت ذرية سعود أو أحد من آل مقرن أو من وطبان الزبير، فهل سيتبدل الحال للأفضل؟ وأردف إن اليمامة منذ قرون في حكم قحاطينها من العايذية أو العفيصان، وكلهم جنس واحد يرون من أطاعهم فقد أطاع الله، ومن لم يوالهم أهانوه وأهدروا دمه وسلبوا ماله، ينشرون الفتن والحزازات بين العشائر وأهل كل بلدة، ويحرضون الناس للاقتتال بين بعضهم البعض، فماذا تؤملون في أي حاكم آخر؟ أولا تطيعون قوله تعالى "عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" لذا عليكم برعاية عيالكم وزراعتكم وبهائمكم، فإنما أنتم من عشيرة صغيرة وقرية تافهة، فما لكم والدرعية وملوكها، فقد عشنا ردحاً من الزمن في خير ولا نعرفها. لكن الغالبية لم يؤيدوه وقال أحدهم ان كلامه يشبه قول الفتاة الضعيفة "من تزوج أمي قلت له يا عمي" أما الجد علي فقال إن الآية يفسرها قول المعصوم، إنه مالم تغيروا المنكر فيوشك أن يعمكم الله بعقابه.

جاء صيام عشر الحجة ثم عيد النحر، وانشغل القوم بتنفيذ وصايا موتاهم وإسعاد المحتاجين بالطعام الطيب، من اللحوم والحنطة والتمن (الرز) سائلين الله القبول ثم الخروج من محنتهم سالمين، لكن الأمور سارت على خلاف ذلك، فبعد أيام وصلت حشود من بعض العمال فارين من الدرعية، يقصون عن أمور مروعة جرت هناك، حيث ارتكب إبراهيم باشا جرائم بشعة، ففي صباح العيد أمر بإحضار بعض من آل

سعود وآل مقرن وآل الشيخ محمد، ثم عمل فيهم الخزي الذي كان المتغطرسون يفعلونه قديما، حيث يجمعون الملاء للفرجة على اعدام مناوئ الحاكم في العيد. ويذكر الأحبة قصيدة المتنبي التي طلب فيها العفو عن رفاقه، الذين قدموا للسيف والنطع ضحى يوم العيد فقال : ------

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده ---------- وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

ولا زالت الأعياد لبسك بعده ---------- تسلم مخـــروقاً وتعطى مجددا

فذا اليوم في الأيام مثلك في الورى ---------- كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ---------- ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتـه ---------- وإذا أنت أكرمت اللئيـــم تمـــردا

وقد أفلح ذلك مع العربي النبيل فعفا عنهم، لكن الألباني الخسيس لم يقبل توسلات القوم له، لذا تفنن في أساليب التعذيب والقتل في ضحى يوم العيد، لكي يدخل السرور على نفسه وعساكره، ويدخل الحسرة والحزن في قلوب أهل التوحيد، فتحولت الدرعية إلى دار مناحة، بينما هو جالس يقهقه ويصفق كأنه قرد معتوه، لذا استأجر البعض عمالاً ليجمعوا أشلاء لحم وعظام موتاهم ليصلوا عليهم ويدفنوهم. وتكرر ذلك يا أحبتي قبل سنوات قليلة، حينما أقدم أراذل الروافض في بغداد على شنق صدام حسين صباح عيد الأضحى، فأصابنا جميعاً الغم رغم ما صنعه في الكويت، واطلاقه الصواريخ على الرياض الحبيبة.

عند نهاية الشهر انفرد الجد علي بنفسه يتفكر في انصرام أيام تلك السنة العويصة، التي أمضاها بعيدا عن أهله وديارة، ويراجع ما دونه في قراطيسه المتناثرة، وسأل الله أن يسبغ على الأمة لطفه واحسانه، وأن يكشف عن "الأمة الغمة" ويختم الأمور على خير وسلامة، ويجعل السنة القادمة أفضل حالا. قبل أن ننتقل لذكر ما تلا ذلك من أحداث أستأذن الأحبة الذين حررت لهم هذه السيرة ليعتبروا بما جرى لأسلافهم، أن اتوقف لبرهة قصيرة أسرد لهم فيها ثلاث مسائل: ـــ

<u>الأولى :----</u> تتعلق بمسمى الدولة السعودية، فقد سمعت والدي رحمه الله يذكر لمجالسيه في أواخر سبعينات القرن الرابع عشر (هـ) أنه لم يجد في أوراق أسلافه ما يشير إلى وجود دولة سعودية في القرن الثالث عشر، بل هي امارة الدرعية التي توسعت تدريجيا بعد عام 1160 هـ ، وكان مسمى الدولة يطلق فقط على امبراطورية آل عثمان وعاصمتها إسطنبول، وتمتد عبر المناطق المسلمة في وسط وغرب آسيا وشمال افريقيا، كما تشمل ما كان يسمى "الروملي" أي ملة الروم في جنوب شرق أوروبا، الواقعة تحت السيطرة العثمانية في بلغاريا وولاخيا (رومانيا) والمجر (هنغاريا) والبوسنة واليونان، وأكثر شعوبها لم تدخل الإسلام. والذي يبدو أن ذلك

المسمى قد جاء عقب تأسيس "المملكة العربية السعودية" كدولة موحدة في منتصف القرن (14 هـ) لتكون بديلا لما كان يسمى "مملكة الحجاز وسلطنة نجد وملحقاتها" وذلك بإلحاح من مستشاري الديوان الأشوام آنذاك، والمعروفين بصفاء فكرهم مع شطحات ظاهرة، رغم أن الملك عبد العزيز رحمه الله لم يستسغ ذلك في البداية، إلا أن شغفهم بذكرى "المملكة العربية السورية" التي أسسها فيصل بن الحسين ثم أسقطها غورو الخبيث، جعلهم يلحون ويحسنون الأمر، وبعد هزيمة المعارضين في "السبلة" وبعدها "أم رضمة" ثم الاستسلام في الجهراء، تقبل الملك الفكرة وتأسست البلاد السعودية (1351 هـ) مما حث بعض كتبة التاريخ (سواء الاكاديميون أو التجاريون) للحديث عن أن ذلك ليس بدعة بل يتماشى مع الشرع، حيث أن السعودية قائمة منذ اتفاق الدرعية بين الأمير والشيخ، ومرت بثلاثة أطوار متقطعة لكنها مستمرة. وقد كان الجدال حول صحة أو ضعف ذلك يحتدم في المجلس، إلا أن أبي ذكر لهم ناحيتين هما أنه لم يجد في كتابة أجداده شيء عن مسمى الدولة السعودية الأولى، كما أن الثانية أكملها الإمام عبد الرحمن مع الثالثة حسب تصنيف المؤرخين لاحقا. لذا فهو يرى أن ما قام به إبراهيم باشا آنذاك لم يكن تدمير لدولة سعودية، بل سقوط امارة الدرعية التي توسعت حتى غطت كافة شبه جزيرة العرب، باستثناء جيب صغير لإباضية عُمان وآخر لزيود اليمن، مع سيطرة محدودة لأجزاء من العراق والشام.

الثانية – كان دور الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، محل بحث مستفيض في المجلس، يتراوح بين الإشادة والتفخيم من جهة والنقد من أخرى، فالبعض يرى له مكانة مرموقة في توطيد إمارة الدرعية سواء في أثناء حكم والده، أو في العشر سنوات التي انفرد بها في السيطرة، فقد نشر الأمن والرخاء وقمع البدع التي شوهت الإسلام. لكن البعض ينظرون الى سياسته المتسمة بالفظاظة وغلظة القلب، مشيرين إلى ما وقع منه على بعض أهل وطنه (نجد) ثم ما جرى في الأحساء والعراق، والخاتمة في المدينة المنورة على صاحب روضتها أفضل صلاة وسلام. والرجل عند حساب العادل الحكيم، وقد مات فجاءة وفي غموض، ولم يبلغ الشيخوخة مثل أبيه وجده بل في سن الخمسينات، وفي حياته عارضه الكثير وأيده الأكثر، بل عصاه بعض أبنائه وقرابته وأعوانه، وكان والدي يرفض إلا الدعاء لكافة موتى المسلمين، بأن يجزيهم خالقهم حُسناً لحسناتهم وعفواً لسيئاتهم. أما بشأن اللقب الحالي له "سعود الكبير" فلم يرد له ذكر في مدونات سلفنا، وذكر البعض في مجلسه أن ذلك لم يصدر إلا في كتابات بعض المستشرقين أو المستعودين، الذين أبهرهم توسع إمارة الدرعية إبان فترة حكمه، فذكروا ذلك اللقب في الفترات اللاحقة، تمييزاً له عن والد جده (محمد بن سعود) كما ذكر احد عمال الشيوخ أن الملك عبدالعزيز سمى زوج شقيقته الكبرى سعود الكبير، باقتراح أحد مستشاريه لما حدث لبس بين الأمير سعود بن عبدالعزيز ولي عهده، وبين حفيد عمه فسُمي الأخير سعود الكبير، ولم يرق ذلك للملك سعود الذي كنى نفسه "أبو خيرين" وسمعت أبي يعرب عن عدم علمه بتلك التفاصيل، لكنه يؤكد عدم ورود لقب

الكبير لدى أسلافه. كما تباحث الجلوس حول عدم استساغة الكبراء قديماً بكنية الابن، حيث يقصرون ذلك على النسوة "أم سعيد أو بريه" أما الرجال فلهم كنى مميزة مثل أبو المعالي أو أبا الشحم أو أبا التمن، ومما ذكرنا أن سعود لم يكن يتأفف من لقب (أبو شوارب) الذي يوحي بالجزالة والفحولة، فهو ليس شارب واحد مثل البقية أو شاربين بل مجموعة لائقة.

الثالثة : ـــ هي مسألة التداخل بين السيرة والتاريخ، والتي سبق التنويه عنها في التمهيد، لكن هذا الفصل يحوي أكثر من غيره على تشابك عريض بينهما، لذا أود من الأحبة التأكد مما أوضح في التمهيد، ثم أزيد عليه أن محاولة استخلاص تاريخ أحداث تلك الفترة من سيرة رجل واحد أمر له محاذيره، إن الراغب في معرفة تفاصيل أحداث تلك الأشهر الكريهة، يلزمه الرجوع لدراسات السادة الاكاديميون، الذين بذلوا الجهد في تتبع روايات من عاصروا تلك الفترة أو سمعوا عنها من الثقات، ومن المهم الرجوع لمصادر الحكومة التركية على علاتها، حيث توجد آنذاك سجلات مكتوبة عن الأحداث، وبعضها محفوظ بطريقة مرتبة ويمكن الاستناد عليها كمصادر شبه موثوقة عن مرئيات الطرف المهاجم للدرعية، وعرضها على مدونات الطرف المدافع عن دياره. وأنوه هنا أن ما ذكره والدي وبعض جلسائه، لا يمثل سوى أربعة أخماس ما وردهم عن سلفهم، كما أني أثناء التحرير قد حذفت عدة أقوال مما لا يتسم مع سياق السيرة، ومن ذلك أمور شخصية عديدة جرت بين آل سعود آنذاك (إخوة وأبناء وحفدة أبو شوارب) أو مع بقية سلالة مقرن بن مرخان أو نسل المريدي، أو أحداث نسائية أو للخدم والمماليك، مما لم أرى من اللائق ذكره رغم علاقته باستخلاص العبر، وذلك تمشياً مع نهج والدي الذي ينزه مجلسه عن الأمور الباهتة. وعلى سبيل المثال للتناقض بين الرواية الشخصية والسرد التاريخي، فقد تساءل البعض في المجلس عن دور النصارى في أحداث نجد خلال القرنين الماضية، حيث أورد البعض أخبار متناقضة حول أول نصراني قدم لوسط جزيرة العرب، بعد قيام "المحمدين" بحركة الإصلاح الديني، فقال أحدهم أن مندوب ملك الانقليز في الهند قد وصل مرسوله للدرعية، لعرض التعاون مع إبراهيم باشا لدحر الوهابية، المحرضين على مكافحة وجودهم في عُمان، لكن جالس كذبه قائلا إنه قابل الباشا في ينبع، وربما أنه سافر اليها بحرا من رأس الخيمة وليس عن طريق نجد. وقال آخر إن أول أوروبي وصل للرياض هو بلجريف (الجاسوس الأيرلندي) في زمن الإمام فيصل، وقد وثق ذلك برسم خرائط لها، لكن أحدهم (فلبي أو غيره) رد أن ذلك شخص مدلس وقد وصف المكان بناء على ما استقاه من أحد الزبيريين، ولم يصل نجد قط حسب الدراسات الأكاديمية، علما أنه ورد في مكتوبنا هذا أن نابليون أرسل رجاله الفرنسيين، من مصر للدرعية قبل الباشا بعشرين سنة. ومن هذا يتبين للأحبة وجوب الحذر من الخلط بين سيرة رجل واحد، وأقوال المؤرخين المنقولة من مصادر عديدة تناقض بعضها أحيانا. كما نعيد التنويه بأن السير

تحوي من الآراء أكثر مما تتضمن من الحقائق، ويلزم الحذر عند القراءة من الفرق الشاسع بينهما، حتى لا تلتبس الأمور وتنحو باتجاه البلبلة.

وبهذا يكون ختام الفصل السابع، وننتقل بعده لسرد "زمن الحيرة" وهو المرحلة التالية من سيرة "والد جد أبي" علي بن حمد بن خثلان الجبري السبيعي رحمهم الله جميعا.